رواية

في ثلاث ليال

محمد أحمد (شوقي)

الطبعة الأولى

رواية

في ثلاث ليالٍ

محمد أحمد (شوقي)

جميع الحقوق محفوظة لدى الناشر ©

المؤلف: محمد أحمد (شوقي)

اسم الكتاب: في ثلاثِ ليالٍ

نوع الكتاب: رواية

الناشر: نقش للنشر

https://www.facebook.com/naqsh.pub

إيميل: naqsh.pub1@gmail.com

تصميم الغلاف: نقش للنشر

مراجعة وتنقيح: د. حمزة عبد الله الضياني

الطبعة الأولى: ٢٠١٩م

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بصنعاء: ١٢٢٩ للعام ٢٠١٩م

يسمح بنشر أجزاء هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين الهاشتاقين: #في_ثلاث_ليال و #محمد_شوقي

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

للتواصل مع المؤلف:

فيس بوك:

https://www.facebook.com/profile.php?id=100015101768163

إخلاء مسؤولية:

الآراء المنشورة بأسماء كاتبيها لا تعبر بالضرورة عن رأي دار نقش، ولا تتحمل دار نقش أي مسؤولية مترتبة على محتوى ما يتم نشره.

مقدمة الكاتب

كان عليّ أن أعرّفكم على نفسي بينما أكتب المقدمة:
أنا أدعى محمد، نشرت روايتي في ٢٠١٩م وأنا أبلغ ٢٥ عاماً من العمر.. طالبٌ في آخر مرحلةٍ جامعيّة، لم أتزوج بعد، أعيش في مدينةٍ صغيرةٍ تُدعى **عدن**.. أعتقد أن لا شيء يهمكم عنّي غير ذلك، وإن أسهبت في الحديث عن نفسي فلن أزيدكم إلا ضجراً..
يجدر بي القول إنني – وأنا أكتب روايتي – كنت أتوقّف كثيراً وأنظر إلى بطلي العزيز **توفيق** (وبالمناسبة هو شخصية عادية جداً؛ لا شيء يميزها، أرجو أن تحبّوه لبساطته)، ثمَّ أتخيل القارئ وأتساءل: هل سيفهم صديقي على النحو الذي صنعته؟!
حسناً.. عندما أغلقت دفتري وانتهيت من آخر أوراق روايتي تنهدت مرتين وفكّرت كذلك بالقارئ؛ هل ستفعل معه النهاية كما فعلت معي؟! إذا كان الأمر كذلك سأعتبر نفسي قد نجحت ولا شيء سيسلبني فرحتي.. أما إذا فشلت فلا شيء سيبدو جديداً على أيّ نحوٍ، وسأضمّها إلى خيباتي التي جمعتها كما يجمع المراهقين صدف البحر لحبيباتهم..

أحب أن أشكر بشكلٍ خاصّ:

د. سامي

ذلك الشخص الذي لا يوصف إلا بالجبل، ولو تحدثت عنه بشكلٍ مطوّلٍ فلن أوفيه حقه، ولكن دعوني أخبركم مثالاً بسيطاً عنه وشيئاً أنتويه بكلِّ صدق:
إذا أراد الله وتزوجت؛ أول شيء سأقوله لزوجتي أنني وأخي متخاصمين ولا نبقى في المنزل سوياً وأي طبع من طباعه أو سلوك يقوم به أتعمد أن أعاكسه؛ أي أننا متخاصمون منذ زمن (مزحة).. سامي الشخصية الرائعة السوية المحبوبة التي هي عكسي تماماً، والتي ستجلب الوبال لي من توبيخ زوجتي وهي تصرخ بي أن أكون وأفعل مثله.

يوسف

الرفيق الذي لم تنجب الطرقات، ولا السجون، لا الأسفار، لا الجبهات، ولا العمر رفيقاً مثله لي، ولم تقترب من التمخض حتى.. لا أريد أن يملّ القارئ، لكن لو عرفتم يوسف فستعرفون أنه يستحق الكتابة عنه.. وهو الصديق الذي تابع معي الرواية حتى انتهيت منها.

ماهر

في الحقيقة؛ لم تكن أول لقاءاتنا ودودة، ولم أكن أتوقع أن المستقبل يخبئ لي صديقاً بهذا الحجم من الالتصاق بالقلب، حيث أنني والآن أكتب أنني لم أجد أحداً ملتصقاً بقلبي كماهر..

ماهر؛ ربّ أخٍ لك لم تلده أمك.. ماهر؛ الشخصية القوية والفذة التي تتكئ عليها دون اهتمام بمجرى الرياح أو بما تشتهيه السفن، فبرجلٍ مثل ماهر تتهاوى الأحزان، وتُبنى أسوارٌ من الفرح والطرب.. هو الشخص الذي حثّني على نشر الرواية بعد أن تقاعست (ولا أعلم هل ستباركون تصرفه أم ستستاؤون منه).

أشكر أيضاً – دون أسماء – أبي، أمي، وعائلتي جميعهاً مروراً بالأصدقاء، الزملاء، وجميع الجميلات؛ من عرفتهن أو رأيتهن، لا سيما تلك الجميلة جداً.. وأشكر جميع من ساعدني ومن أعتمد عليه بالمساعدة لاحقاً بعد نشر الرواية أمثال الرائع محمد الحريبي..

هناك أسماء مميزة، وهناك اسم تبحث عن مكان له في كلِّ مكانٍ من الورقة والرواية ليبرز وترتاح نفسيتك بوجوده، لأن بالي لن يرتاح إلا إذا كان مميزاً عن غيره، لذلك وضعته بمفرده، وكجميع من في اللوائح دائماً يحتفظ البطل بالظهور الأخير، كذلك بالنسبة لي أخي وصديقي وحبيبي **سمير**، أنا لا أهديه هذه الرواية؛ أنا تمنيت لو أني أهديه عمري.

الإهداء

إلى أبطالِ روايتي؛

الذين صبروا معي كثيراً،

وتعفّنوا قرابة ثلاث سنوات حتى أكملت روايتي..

أتذكّر أن **توفيق** ظلَّ ينتظر رغد لأسابيع في مطاعم الحمراء،

لكنّه في الحقيقة كان ينتظرني حتى أكمل ما بدأته،

فشكراً له..

حقاً لقد أتعبته معي كثيراً جداً..

منشور للكاتب نشره على موقع التواصل

مساء الخير أيتها المدينة المقهورة..

مازالت جارتي تضرب رأسها كلّما تذكّرت حبيبها النائم على ترابك، وفي كلّ منزل تخيم الكآبة والأحزان..

- متى نسمع القرآن عند فرحك؟!

لا يدوي القرآن في منازلنا – أيتها المدينة – إلا عند أحزاننا..

بائع الخضار منهك، وحسناء الحارة تبكي، وهناك من يغنّي، وعندما ينتهي يبكي، وهناك من ترقص في منزلها تحت إضاءة فانوسها الصغيرِ لتنامَ متعبةً دون وجعٍ يا مدينتي.. حتى أشجارنا الجميلة؛ تساقطت، طيورنا الجميلة هاجرت، لم تبقَ سوى الجدران والإطارات المحروقة؛ صامتةً تشاهد مآسينا بحزن!

الليلة الأولى

الفصل الأول

بعد مرور عامٍ من الحرب كالعاصفة في وطأتها والجبالِ في ثقلها، لم يتغير شيءٌ مهمٌّ سوى أنّ الجميع صاروا يسيرون بقلقٍ أكبر وتوجسٍ أخطر، والشيء الوحيد الجيّد منذ نحو سنة إلى اللحظة هو عودة السيجارة في كلّ المحلات والأكشاك التي بدأت بالبزوغ على خجل وكأنّ حمل السلاح هو الصواب، فبعد الحرب أصبح الجميع يتحدثون عن السلاح والذخائر والمضيّ ذهاباً وإياباً على سيارات الجيش في الطرقات الحالمة، ونسي الجميع من فقدوا أقدامهم تحت براثن الغول الكبير المدعو "الحرب"، نسوا مسحة كفّ أمهاتهم على وجوههم العائدة من الخارج، نسوا وقع خطواتهم مع حبيباتهم وكيف ضحوا بذلك لكي تعيش هذه المدينة الصغيرة وتنفض عنها تراب القذارة وتلوح لكلّ مصاب وتدعوا لكلّ شهيد.. كم من طفلةٍ بكت أمّها حتى بللت ذقنَ أبيها دمعاً؟! كم من حسناء خطت على متن قوس قزح، وكم وصفت حبيبها بعينيه اللوزيتين، وكم فكّرت بالمستقبل الحافل وأصبحت دون شريكٍ بسبب الحرب؟!

في ذات يومٍ سمعت صوته وهو يخبرها على الهاتف أنه يحبها وأنه سيعود قريباً، وعليها أن تسامحه إذا ما مات، قال:

- شعرك الأسود، جسدك الممشوق، عيناكِ الواسعتان، أناملك الرقيقة، ورائحتك الفواحة هي كل ما أحبّ. والآن إلى اللقاء..

أغلق الخط دون أن يترك لها فرصةً للوداع.. هذه القصص ليست خيالية، فهي لا تحتاج لأكثر من رجلٍ وفتاةٍ يحبون بعضهم، ونصف كأسٍ من الحرب، وستجد أن الموت يضرب أروع الأمثلة في اختيار الأبطال والشجعان، والأحبة يا أحبتي.

****

خرج **سامر** من داره متجهاً إلى "جولة البط" والتي تُسمّى أيضاً "جولة الجمهورية" لوقوعها أمام مستشفى الجمهورية، سميت جولة البطّ لأن فوقها بط، أو كان فوقها بط جميل، لكنه كان أول ضريبة للثورة والحرب؛ أحرقه المتظاهرون للتعبير عن غضبهم وجوعهم ورفضهم للواقع المزري الذي يعيشون فيه.. وبقدر خطأ هذه الأعمال بقدر ما نخجل من لومهم والبطونُ خاويةٌ تقرقر.

التقى سامر بصديقه **توفيق** الذي كان أطول منه، شديد السمرةِ، ومتجهم الوجه؛ لكنه كان سمح الطبع.. وبعد أن أشعل كلّ منهما سيجارة وأخذ يتناولها؛ أخذ توفيق يتأمل صديقه بنظراتٍ طويلة كمن يتردد لطرح سؤال، حتى ارتبك سامر وضربه على فخذه وهو يقول:

- خير؟ ما بك تنظر لي هكذا؟! لا تقل لا شيء، أعرف نظراتك هذه، لكن ما بالك لا تتحدث؟ هل...؟ (ثم أخذ يتأنّى وكأنه يفكر بقولها) هل تفكر بأخذ قيمة الدخان؟! لا مانع عندي؛ إذ أن المال ليس لك.. بل لغيرِك.

اعتاد سامر أن يجرّ الحديث من صديقه، ابتسم توفيق وكاد أن يضحك لولا أن شعوراً كئيباً طغى عليه فجأةً! ثم قال:

- لا تفكر هكذا يا صديق، كنت فقط أفكر كيف ستتقبل فكرتي إن أخبرتك، وهل ستناصرني بعقلك هذا؟! لا تؤاخذني يا سامر لكن أنت تعلم أن عقلك صعبٌ بعض الشيء، وأنك ترى الأمور في غير إطارها المجتمعي، فأنت تحب إخراج الصورة من بروازها وأنا لا أستطيع ذلك، ولكن لعلّك تفيدني.. أنا لا أحاول تهويل الأمر؛ لكنك ستساعدني أو هذا ما آمله على أية حال.

انتفض سامر في قلق وحيرة:

- لكن ماذا جدّ؟! هل حدث شيء لأحد أفراد أسرتك؟ وكأنك اقترضت سُلفَةً وصعب عليك سدادها؟!
- لن أحدثك بهذا الشأن لو كان الأمر كذلك.. (أجابه توفيق).
- إذاً؟! (قالها سامر بتوجس).
- سأخبرك؛ حسناً سأخبرك.. أصغِ إليّ فقط:

مضى على ذلك يومان أو ثلاثة أيام، وأنا الآن قادم منه.. كان الجو خانقاً، ودرجة الحرارة شديدة بسبب هطول الأمطار قبلها، ومن المتعارف في المناطق الحارّة يتحول المطر إلى رطوبة خانقة تتحول كعَرَقٍ برائحةٍ منفرة تخجل إثرها من تقبيل زوجتك وأنت عائدٌ من العمل (هذا لو كنت متزوجاً).. أنا لا أقول ذلك بغرض المفاخرة فهذه المعلومة لستُ موقناً منها؛ فقط أنا أشعر بذلك، والجميع يتحدث عن الرطوبة بعد المطر.. عموماً لنعد إلى ما كُنّا عليه في ذلك اليوم، كانت نفسيتي كئيبة جداً تناسب شعوري مع كلِّ صيف، لكن هذه المرة تسبب ذلك بعراكٍ حادٍّ بيني وبين أبي مما جعلني أخرج من المنزل مهرولاً زافراً إلى اللا مكان، حينها لم أكن قد خططت للذهاب إلى أي مطرح، ظللت ساعات أفكر، أعدّها نحو ثلاث ساعات، جلستُ فوق حجرٍ قريبٍ من فندقٍ كبير.. كنت أستعرض مشكلتي مع أبي في خيالي، لم تكن مشكلةً بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كانت كأيّ مشكلةٍ تافهةٍ بين الأب وابنه، وبسبب انفعالي صفعني، أعجبتني صفعته حقاً.. الآن وأنا أفكر بالأمر أجد أن ذلك كان الحلّ الأفضل لكبحِ انفعالي لأني انفعلت حقاً، وإذا لم يكن صفعني ما كنت استطعت العودة والنظر إليه، كان يجب عليّ الارتماء على قدميه وتقبيلهما لكنه أنقذني من ذلك فعلاً، وفي الحقيقة أنا لا أستطيع فعل ذلك؛

ليس غروراً أو تكبراً فهو أبي، لكني لا أجرؤ كما لا تجرؤ فتاة الثلاث "ملايات" على البوح بحبها الدفين في نعشها الأسود..

بدأت أقتات السيجارة تلو الأخرى، تخالطت الأفكار حينها في رأسي؛ تارةً أفكر بما أخبرتك، وتارةً أخرى في عدم موافقة فتاة العمل القديم أن نصبح أصدقاء، وتارةً ثالثة في ابنة الجيران التي صاحبت كلَّ رجلٍ بعيد ورأيتها بأمّ عيني ترافقه ولم تفكر حتى في الحديث معي تحت المثل الذي يقول: (شاة البلد ما تعشق إلا التيس النكير "أي الغريب")، وذلك حتى بعد أن تودّدتُ لها، رفستني بعينيها ونظرة الامتعاض تتوسد شفتيها، وزجرتني قائلة:

"لا تقبل هذا التودد على أختك فلا تقبله عليّ"، أنا قليل الحظ في نون النسوة وأنت تعرف كم أنا وحيد، وذلك الجو الخانق أصابني بالصدى وكأني من حديد بفعل العرق والعراك والصفعة التي تلقيتها، كلّ ذلك يجعلني لست بخيرٍ على الدوام وعرضةً للخطأ نتيجةً لأفكارٍ تحبطني بشكلٍ مستمر، أحياناً أتمنى لو تمطر السحاب نساءً عاريات؛ لو فعلت السحاب ذلك لانتهت جميع المشاكل العاطفية وانخفضت كآبة الكون ولن يموت الذين ماتوا، بل ستبقى هناك وفي مكان ما نائحات يتوسدن السماء دعاءً لهم وستخلد ذكراهم في الأفواه الرطبة.

كنتُ أختنق في جلوسي وأوشكت على البكاء لولا الخجل من الناس والرتابة التي تكسو وجهي، فكما تعلم أنا جامدٌ جداً وهذا الأمر يزعجني، إذ لا يتقبلني الجميع بهذا الوجه الجامد الغاضب، يعاملونني بكلّ جدية، ويخافون مني كما لو أنني سأحطم وجوههم.. أشعلت عود سيجارةٍ آخر؛ فهي وحدها من تهدِّئ من لوعتي كما تخبرني أنت، ضممت كلتا يديّ في وجهي وأنا أتذكر الروع الذي أنا فيه ورسالة ابنة العمل القديم التي أخطأت برقمي؛ تظنه رقم شخصٍ آخر متميز في العمل.. تضاربت في قلبي الكثير من المشاعر وشعرتُ أن لا شيء في حياتي مهم، وكدت أصدق أن وجهي في ذلك الوقت كان مرآةً للحزن.. نهضت لأتمشى قليلاً عائداً إلى المنزل، مشيت متثاقلاً؛ خطوةً تجرّ خطوة إلى منتصف الطريق حيث كانت البنايات الثقيلة تلوّح لي من حولي وأنا أركل حجراً مسكيناً أوجعته، اجتاحتني مشاعر متثاقلة وهموم متكدرة على قلبي وضيق في أنفاسي، وبدأت أسير وكربٌ عظيمٌ في قلبي.. كان الشارع شبه خالٍ والمواصلات شبه معدومة بسبب أزمة النفط في ذلك الوقت، كانت الساعة حوالي الحادية عشر مساءً، بدأت أفكر بصوتٍ عالٍ: "هل أعود؟! إلى متى أضل أسير وأمرح هنا؟! وهل هناك من يمرح وهذا الغيظ في قلبه؟! لابد أن من يسرح ويمرح يشعر بالغبطة بانفراج سريرته وليس هكذا، هل أتصل بأحد أصدقائي لأخبره بالمبيت عنده؟! هذا ثقل؛ ثقلٌ

شديد في ظروفٍ كهذه.. لا أحد سيمانع، لكن هذا ثقل شديد".. بدأت أردد هذه الجملة كثيراً حتى توقفت وعدت أدراجي إلى الصخرة وجلستُ هناك لساعةٍ أخرى..

قررت أنهُ بهذا الكرب كله لن أدخل البيت مبتسماً أو آسفَ الحال، بل قد يزيد هذا من احتدامي أنا وأبي، فقررت الهدوء والعودة عندما ينام.. عدتُ أتمشّى قليلاً على الشاطئ، كان الفندق قريباً من البحر؛ بحر **ساحل أبين** العتيق الحزين ليلاً، والذي قال فيه الشاعر:

"يا ساحل أبين للعشاق لك معبد

جمرة على جمرة والعين تنادي العين"..

مهما بدوت يائساً من عدن فإن ساحل أبين سيأسرك بامتداده الطويل وزحفه إلى ما بين أصابعك يتخللها، وعمقه الداجي المظلم الذي لو غَرِقَت فيه جميلةٌ لأصبحت حورية (ولا توجد فتاة قبيحة في عدن كما تعلمون)، كما أنهُ يحمل كثيراً من صور العشاق متشابكي الأيادي الذين جاهروا بحبهم أمام هذا العجوز الشاب مديد العمر، ولاعبي الكرة من أرجاء الحواري والأطفال وكبار السن، هذا البحر العجوز نظر إليه عجوزٌ كان في مثل عمري منذ زمنٍ سحيقٍ غادر منزله موبخ الحال، وها أنا أنظر إليه..

قاطع صوت توفيق حديث سامر:

- ادخل في القصة، هل تحاول أن تشرح لي صفعة والدك ومشاكلك العاطفية؟! (كان وجه سامر مشمئزاً من ثرثرةِ توفيق الطويلة).
- صبرك عليّ يا رفيق، أنا أوضح لك الصورة، لن تكون سعيداً لو أخبرتك أن هناك من سيُقتَل، لاسيما لو كانت.. اسمع! لا تقاطعني!

قال توفيق ذلك وقد ابتسم بخبث..

- هل هذه قصة شخص سيُقتَل؟! (قالها سامر وقد امتقع وجهه).
- أجل، لكن ليس كما تظن.. (قالها توفيق غير مبالٍ).
- عُد إلى الصورة، عد لتشرح كيف فعلت ذلك قاتلك الله.

ضحك توفيق بجلجلة وقال وهو يستعيد رباطة جأشه:

- كان ذلك عندما كنتُ في الساحل وقررت السباحة، لا أستطيع إخفاء شيءٍ عنك..
- مثل ماذا؟!
- لا تقاطعني.. (قالها توفيق) ثم أردف:

خلعي لكلّ ملابسي (ثم تردد قليلاً وأكمل) إلا من قطعةٍ صغيرة تستر عورتي)، لم يكن هناك أحد؛ كان المكان بأوسعه خالياً.. كان الجو خانقاً إثر الرطوبة الشديدة والرياح شبه المتوقفة، بدأ العرق يبلل ملابسي، لذلك لم تكن فكرة خلع ملابسي سيئة؛ لاسيما للسباحة.. وهكذا فعلت.. رميت

ملابسي وأغراضي من سجائر ومحفظة على حجرٍ قرب الشاطئ، وبقيت كما ولدتني أمي – أقصد إذا كنت دون تلك القطعة – أسبح وأموج مع البحر وأغازل الفراغ وأبكي، تخيلت السمكة التي تغزل فيها **هيمنجواي** في رواية "الشيخ والبحر" تظهر لي وتواسيني، وفي غمرة خيالاتي قطعني من كل ذلك سماع صوت شاحنة؛ أعني سيارة مرسيدس فاخرة تتوقف مكان أغراضي في مواجهتي.. هممت أحدث نفسي، أستغفر الله لا يأتي أحدٌ هنا في هذا الوقت إلا...؛ أستغفر الله، أستغفر الله..

وما اهتممت له أكثر وجعلني أنساب نحو اليابسة دون أن أظهر نفسي في الماء هو: هل لاحظ أغراضي وجاء ليسرق المال والملابس؟! ما سبب تأخره؟! هل يتفقد المكان؟! لأكن أسرع من سريرته..

اعتاد الوقور **(أبين)** الكثير من هذه القذارة على موضعٍ ما من سرواله، أحياناً سيارةً فاخرة، وأحياناً بالية، وأحياناً شاحنة على متنها عاملٌ استفتح على أجرٍ يلقيه لعاهرة، وهكذا... وهذه التي كانت أمامي سيارة فاخرة..

وصلت إلى الشاطئ واختبأتُ خلف الحجارة بسبب هيئتي العارية، كانت السيارة أمامي والملابس بجانب السيارة وأنا خلف الصخور أفكر؛ ماذا سأفعل؟! هل أتسلل لأخذ الملابس زحفاً؟! أم أنهم إذا اكتشفوني سأبدو مثيراً للشفقة؟!

زحفت يا صديقي وكان رأسي قريباً من السيارة، وتحت الباب الأمامي بمحاذاة السائق سمعت باب السيارة يُفتح من الأعلى أو مازال يحاولُ ذلك بارتباك، هممتُ بإخفاء نصفي السفلي وأنا أنظر لفتاةٍ اعتقدت أنها كانت عشرينية قبل أن أعلم أنها بعمر الثلاثين؛ ذات خصلاتٍ سوداء تسبح من حجابها، توجه فوهة مسدسها نحوي! لم أشرح لك طويلاً كيف وصلت إليها؛ المهم أنني وصلت.. قالت والمسدس في يديها وبلهجةٍ غير مألوفة؛ لكني فهمت معناها (وسأتحدث بشكل مفهوم): "أيش معك هنا؟!" قالتها بكل قوة وإن بدت مرتبكة، قلتُ ونصفي مازال تحت سيارتها لا تراه: "لم أقصدك أنتِ" (حريٌّ بالقارئ أن يفهم أن سامر شكّ فعلاً أن توفيق كان عارياً تماماً من كلّ ملابسه).. خرجَت من السيارة ووقفت بجانب رأسي وأصبحتُ أنظر إليها بالمقلوب، وقالت: "يا عيني يا عيني، أيش كنت تفعل تحت السيارة؟ تفحصها؟! اخرج قبل ما أقتلك" ثم صرخت وكأنها تريد أن تبدوا قوية: "اخرج!". عضضتُ على شفتيّ وقلت: "لا أنصحك بذلك." فأجابتني: "اخرج!".. قلت لها: "يا بنت الناس ابعدي مسدسك لأخبرك؛ ماذا تفعلين؟! لا توتريني.." أجزم أن وجهي كان أحمراً كالجمرة، لكنها أجابتني بصرامة وقوة: "كليك! قلت اخرج!".

****

الفصل الثاني

بعد شحنها لمسدسها وصراخها العالي استسلمتُ أنا وبدأت أخرج جسدي من تحت سيارتها كأفعى تتحرك حتى انكشفتُ بكاملي؛ لا حجاب ولا شيء يخفيني عنها..

- ادخل! ادخل يا ابن الـــ...، سوّد الله وجهك وجسمك البطر (العاري)..

عدتُ إلى أسفل السيارة كجرذٍ بعد ملاحقةِ قطةٍ عنيدةٍ له إلى وكره، طلبت منها ملابسي، وطلبت منها أن تنتظرني ريثما أرتديها، كنت خجلاً كلّ الخجل، كانت قد وثقت فيَّ فقد شرحت لها لماذا رأتني هكذا.. ضَحِكَت ولم تملك إلا أن تصدقني، وها أنا الآن داخل سيارتها أكتشفها حقاً، هل رأيت ملامح تأتي على عجلة؟! اكتشفت روعتها سريعاً، كانت كساحلِ **أبين** يا صديقي هادئةً ومتقلبةً، وصوتها كماءٍ باردٍ يصبّ على جسدك بعد عناء يومٍ طويل، متناسقة الوجه، حاجباها رفيعان، تملك نظرةً ساحرةً وعينين تضيئان وكأنهما كوكبان، جبينٌ برّاق من النوع الذي تحتشد حبات العرق فيه ما إذا بذلت أي جهد، عروقُ يديها الخضراء واضحةٌ علامة لجمالها وبياضها.. كانت لوحدها في السيارة وليس كما ظننت، كنتُ مرتبكاً جداً، أفرك أصابعي كثيراً حتى فوجئت بيدها تلمسني؛ أقصد تلمس يديّ لتبعدهما عن بعضهما، ثم نظرت لي مبتسمةً واعتذرت كثيراً عن رفعها السلاح بوجهي، وعندما أردت أن أوضح لها

الصورة وأقول إن أي فتاة؛ بل أيّ شخصٍ في مكانها سيفعل ذات الشيء، كحركةٍ دراميةٍ أرجعت رأسها للخلف على المقعد وأشعلت دخاناً من حقيبتها ونفخت نحوَ الهواء وكأنها حالمة.. لا أعلم كيف أشرح لك يا صديقي ما حدث، كنت حينها أفكر كيف وصلت إلى هنا؛ أقصد في السيارةِ ومع حسناء! كنتُ مرتبكاً جداً، بدت وكأنها قرأت تفكيري قالت:

- كنتُ بحاجةٍ إلى شخصٍ لأتحدث معه، لا يناسبني الجلوس وحيدة.

ثم قالت وقد بدأت خصلات شعرها بالظهور:

- تحدث عن نفسك، ماذا حدث معك لتسبح في هذا الوقت من الليل؟! هل ترى البحر؟! هل تؤمن بالحوريات؟!

قصصت لها قصتي وماذا فعلتُ مع أبي وكيف صفعني.. في الحقيقة تحدثت عن حظي التعيس مع الإناث، وأنني للمرة الأولى أجلس وحدي مع فتاة بهذه الطريقة، وأرجو أن تعذرني لو كنت مرتبكاً أو سخيفاً.. أخذت تضحك وتحملق في عيني وهي تقول:

- لا.. لا عليك، بل جيدٌ جداً ومناسب.. تبدو وحيداً جداً..

كان وجودها فاتناً، وحتى لو كان عادياً فأنا لم أختبره من قبل؛ لذلك وجدته فاتناً وكأنها بقايا أملٍ أعادتني إلى هذه الحياة.. كان وجها يحمل القليل من خمرِ الجنّة، خمرٌ لا يسكرك لكنه يبقى خمراً تحبه ويحبك، لم أعلم أن الفتاة يمكنها أن تضحك مثلنا يا صديقي وأن تتحدث مثلنا، دائما ما كنت أعتقد أنهن منطويات

وضحكاتهن عبارة عن تعبيرٍ آخر للخجل.. فتاة السيارة – وبالمناسبة اسمها **رغد** – أزاحت عن عيني ستاراً عملاقاً وقامت بحيويةِ مقدمِ أيِّ عرضٍ تلفزيونيٍ تعرّفني على بني جنسها بضحكاتها وحديثها معي بكلّ أريحية وكأننا نعرف بعضنا منذ الطفولة.. كانت تتلألأ..، أكاد أقسم أن عينيها كانتا تلمعان وفجأة كانت تعود إلى هدوءها وكأنها تفكر، لكن وجهها دائماً يشع لي بابتسامة؛ يحاول أن يبدي سعادته معي.. يا لي من مغفل يا صديق!

سمعتُ أنّ القراصنة يعتبرون وجود أنثى في سفينتهم جالباً لسوء الحظ، فهل هذا يشمل السيارة؟! لم أفكر في ذلك مسبقاً، لقد كانت عيناها أو لنقل كلّها هي بشكلٍ كاملٍ من تقودني إليها.. قالت لي بشكل مفاجئ:

- لا ترتبك؛ أنا فتاة عادية ونحن أصدقاء الآن..

لم أعلم بماذا أجيب، فأنا لم أختبر صداقة فتاةٍ من قبل، وهل هي صادقة؟! هل – إذا رحلت من هنا – سنبقى أصدقاء حقاً؟! هل سنبقى على تواصلٍ بعد ذلك؟! هذا تحديداً ما فكرت فيه، وليس عن أنثى القراصنة.. أردفت وكأنها سمعت تفكيري لتقول:

- ألا تثق بي؟!

أجبتُ مسرعاً كمن لا يودّ تضيع فرصة:

- لا.. لا.. أعني أنني أثق بك وأقبل أن نكون أصدقاء، ولكن اعذريني هل تتحدثين عما سيحدث لاحقاً أم تقصدين اللحظة؟!

ضحكت وقالت بإيماءةٍ سريعة نحو السحاب:

- أنا لا أفكر باللحظة؛ اللحظة تمرّ وأنا لست خائفة منك.. ماذا سيفعل رجل مرتبك مثلك؟! أنا لا أقصد الإهانة، لكني أقصد أنك رجل طيب.. سأثبت لك حسن نواياي؛ أنت لا تستطيع الذهاب إلى المنزل الآن، أنا سأدعوك إلى منزلي بكلّ رحب وسرور.

لم أصدق ما سمعته أذناي؛ ظننته طنيناً من مكان ما مرتفعٍ لا وجود له، أنني اليوم سأبيتُ مع فتاة؛ بل في منزل فتاة! لكن ماذا عن أهلها؟! وعندما أخبرتها بذلك قالت:

- لا عليك؛ فأنا أعيش وحدي، وهو ليس منزلاً بل فندق رخيص لا يسأل من يدخله أو يخرجه لو كنت ستفكر بذلك لاحقاً..

بدأ الدم يعود إلى عروقي، وبنفس الوقت تصاعد القلق رويداً رويداً وبلمسةٍ خفيفةٍ من يدها الناعمة وقف شعر يدي وطبعاً وافقت.. (سأقول إنني كنت نائماً عند أحد أصدقائي أو عندك مثلاً يا صديقي.. ألا تجد أنك كنت ستفعل مثلي يا رفيق؟!) لا تجِبني الآن..

كان سامر عازما على الرد لكنه توقف.. استطرد توفيق حديثه قائلاً:

- ألا ترى ما أجمل هذه المصادفة؟! أعني ضربَ أبي لي وخروجي من المنزل في هذا التوقيت.. سأخبرك بكل الحقيقة عن تفكيري في وقتها؛ كنت أعتقد أن الله جعلني أستنفذ دموع أحزاني على تلك الصخرة ليمنحني

حياةً أفضل وكأنه يربّت على كتفي ليعدني بهدية قادمة.. هل كانت مصادفةً ولوجي للبحر وأنا عاري لينتهي بي الموقف تحت سيارتها؟! بل قدومها في هذا الوقت إلى الساحل؛ هل كانت مصادفة؟! وطلبها أن أنام عندها لتعميق شعور صداقتنا، كلّ ذلك جعلني أفكر أنني أمام هدية عظيمة عليّ عدم التفريط فيها.. ابتَسَمَت عندما وافقتُ على طلبها وارتبكتُ أنا كعادتي غير مصدقٍ أن ذلك سيحدث، قالت لي وهي ترفع عباءتها لتستعد للقيادة:

- من حظي أن هذه المدينة قابلتني بشخصٍ مثلك، صدقني لن أتركك. (قالت ذلك وقد حولت عينيها إلى المقود خجلةً بعض الشيء).

ابتسمت وقلتُ:

- بل الشرف لي مقابلتك.

وبداخلي ذهولٌ لا يُصدَّق! هل هي آخر فتاة تقول ذلك؟! أم أنها من النوع الذي يرحب بالجميع؟! تركت كلّ تفكيري عندما قالت:

- مسكني عبارة عن غرفة واحدة، وأنت لن يزعجك وجود صوت آخر تسمعه صحيح؟!

ضحكت وقلت:

- لا..

شعرتُ بروحي تخرج وهي تدير مفتاح السيارة وتستعد للانطلاق.. قلت لها:

- يا عزيزتي رغد.. أشعر أن الله قد بعثك إليّ، عليك أن تفهمي ذلك؛ أنا وحيدٌ جداً، عندما كنت صغيراً كنت أحاول تعلم لغة الحيوانات، لقد كنت أحاول أن أعبر عما أودّ قوله وأنا أقول "مياو" كصوت القطط لأجد من أتحدث إليها.. لا تضحكي أرجوكِ فأنا لست محروماً إلى هذا الحد، لكن أعتقد أنكِ رأيتِ مجتمعي وستفهمينني، هنا تغلق الفتيات كلَّ شيء؛ ملابسهن، آذانهن، عيونهن، وعقولهن عن التفكير فيك.. حسنا أنا أعلم أنني لا أعلم بماذا يفكرن، لكن لا شيء قد يوحي إليك أنهن يفكرن بك؛ تخيلي! وكأنهن يعشن في دورٍ أرضيٍّ دون هواتف وضوء إلى الأبد.. أنتِ – يا عزيزتي رغد – مختلفة، وما يجعلني أتحسر هو أنكِ قد ترحلين لأنه يبدو لي أنكِ تعيشين في مكانٍ بعيد ولو لم تخبريني بذلك.. أنا أحفظ نساء بلدتي ولو لم أقابلهن، وأنتِ من مكانٍ بعيد؛ مكانٍ يحمل صوتاً عذباً ولهجةً قويةً وجميلة.. لا.. لا يا عزيزتي؛ لا تعتقدي أنكِ وقعتِ مع مغفلٍ سيغرم بك فقط لأنكِ تشفقين عليه، أنا فقط أخبركِ بما يجول بخاطري لأنك...، لا أعلم ماذا أقول؛ ولكني أتخيل أنني أعرفكِ منذ زمن، منذ زمنٍ وأنَّكِ صديقي المقرب.. الحبّ ليس كل شيء، ليس الماء الذي نشربه، وليس الهواء الذي نستنشقه، فهناك من كانت أعمارُهُم مديدةً دون أن يأكلوا كسرةَ حبّ، ومع ذلك ابتهجوا في الحياة وقضوها طولاً وعرضاً..

لا تفهميني بشكل خاطئ – يا عزيزتي – فأنا أتحدث عن العشق، لكن الصداقة شيء عظيم لا يمكن لشخصٍ منّا أن يعيش دونها..

ابتلعتُ ريقي وكنتُ أودّ أن أضيف أشياء كثيرة؛ لكني صمتُّ، عندها ربتت على كفي وهي تنظر لي كامتنان تلك النظرة التي تقوست فيها شفتيها.. قلت:

- يا صديقتي؛ هل أخبرك قصةً جميلة؟!

أومأت وهي تبتسم بـ"أجل".

- كان ذلك قبل عشرة أعوام تقريباً.. كنت أحمل مشاعر كبيرة وقوية نحو صديقة أختي؛ تلك الفتاة الورقية التي كانت رقيقةً كغصنٍ أخضر يحتفل بالربيع.. كانت دائماً ما تأتي عندنا في المنزل، كان وجهها لامعاً كالقمر، وجسدها صغيراً، كانت تبتسم دائماً، وتبتسم لي أيضاً، وعندما كانت تظل وحيدةً كئيبة بالرغم من أنني لم أرَ ذلك (لكنّي أراهن عليه) كانت تبتسم، كلّ ذلك جعل من قلبي نافذة يدخل منها أي شيء، ولم أعلم أن الخريف من كان يتسلق السور ليدخل، كنت أختلس اللحظات لأقف أمامها، لأحدثها، لأرى وجنتيها الجميلتين.. لكم كانت تعجبني وجنتاها! كانت تعجبني أكثر من عينيها، لا تستغربي ذلك، أنا لا أعلم لماذا يهتم الشاعر بمحجرين بينما لديه ذلك المكان الواسع الرطب.. كانت تحمل أجمل وجنةٍ قد تحظى بها فتاة.. كنت أزفر وأشهق كلما رأيتها أو سمعتها وهي ترسل اللهجة الشمالية من فمِها، يظل يتردد ما قالته في رأسي طوال الليل، حتى

عزمت على الإفصاح بحبي بمفردي دون إقحام أختي في الأمر.. وفي الليلة التي تلي قراري لاحظت غيوماً شديدة على مدينتي فعرفت أنها لو أمطرت لاستقبلنا في الغد نهارٌ شديد الرطوبة. كان يوماً منذ بدايته يبشر بالكآبة، وقتها جاءت أختي لتخبر أمي على مسمعٍ مني أن صديقتها ستُخطَب؛ صديقتها التي أحبها! شعرتُ بالغضب والنفور واليأس ثم كنت أعنّف نفسي على هذا الأمل الزائف وأدرج نفسي تحت خانات اليأس.. لكم جبت الشوارع حزيناً في ذلك الوقت! راكلاً كلّ ما شاهدته أصابعي، نافخاً زافراً والدموع تغطي وجهي من وقتٍ لآخر، وأحياناً كانت تصيبني حالةٌ من الجمود القهري داخل نفسي، مقيداً روحي بالكمّ الهائل من الذكريات مِن طرفي فقط.. كانت الحياة تمشي معي بطريقة سيئة، كنت لا آوي إلى النوم إلا لكي أنسى ما حدث، ويتحول فراشي إلى أنينٍ من الرعشةِ وفي الخارجِ يحيطني واقعٌ كئيب.. كان رأسي سيتفجر من شدة التفكير والأسئلة؛ من هذا الذي سيتزوجها؟! من هذا الذي أغرمت به؟! من الحيوان الذي سيلمسها؟! ثم أحدث نفسي؛ هل حقاً ستختفي؟! ألن تكون هي الفتاة التي سأحبها للأبد وأتزوجها؟! كنتُ حزيناً يا عزيزتي، لا تشفقي عليّ بوضع يدكِ على كتفي، كنتُ حزيناً جداً كجدارٍ مائلٍ يمر من أمامه المارّة مرحين متحابين دون أن يسنده أحد، وبالمناسبةِ لم تمطر في ذلك اليوم.. كانت والدتي العزيزة تسألني عما حدث لي، كانت تدخل عليّ في

غرفتي لتجدني بحذائي وسروالي وكلّ ملابسي نائماً على السرير مغرق العينين في أوقاتٍ عادةً لا أكون فيها في المنزل، وفي الأوقات التي يجب أن أكون فيها في المنزل أهرب بعيداً.. لقد نحفت حينها بعض كيلو جرامات من جسمي.. وبالمناسبة؛ هي لم تعزف عن المجيء إلى منزلنا، وأعتقد أنها لاحظت حزني وتحدثت هي وأختي عن ذلك، ولكنهما كما أعتقد في حينها تركتا الأمر مبهما.. حاول الجميع أن يفهمني، لكن في النهاية وكأنهم قالوا لأنفسهم هذا المسكين الوحيد يبدو أنه أصبح وحيداً جداً فقط..

لكنها وبعد شهرٍ واحدٍ انفصلت عنه لأسبابٍ في الأسرة غير مهمة، انفصلت عمن كانت ستتزوجه، شعرت بالسعادةِ تعود إليّ دفعةً واحدةً وكأنّ الشمس أشرقت في وجهي، عادت ابتسامتي وروحي وحياتي إلى وضعها الطبيعي، ذلك الوضع الذي نسيته منذ شهر – يا عزيزتي رغد – لا تعلمين كم انفرجت أساريري وكم ترتقت آمالي، لم يلاحظ أحدٌ تزامن ذلك مع فسخ خطبتها، شعرت بأن الله يشجعني على التقدم والتحدث معها ومصارحتها بمشاعري وأحاسيسي وأن أطلبها للزواج.. لن أدعها تعتقد أنني الولد العاطفي فقط، بل الولد الجاد المقبل والمتعهد بالزواج، سأضمن لها ذلك بعيني، وكنتُ متأكداً أنّها ستقبل (في تلك اللحظة شعرت بأنها ستقبل أكثر من أيّ وقت مضى)، وإذا أخبرتني بعينيها الجميلتين أنها تودّ ضمانات؛ حينها فسأنزل عيني إلى الأسفل وأقسم لها

مرةً أخرى أنني صادقٌ وستصدقني، أجل؛ ستشعر بعلوّ حبي، ستخبرها النجوم بحبي.. أحيانا تهبط الشهب لتحقق آمال الرجال المساكين، وأنا رجلٌ مسكينٌ آخر..

****

كنا حينها في منتصف الطريق، شعرتُ أنّه منتصف الطريق بالرغم من أنني لم أكن أعرف الوجهة. كانت عينا رغد اللوزيتان تشتعلان بمراقبتي ومراقبة الطريق.. مشينا في اتجاه "العريش"؛ شعرتُ أننا ماضون إلى "الشيخ" فواصلت حديثي:

- لندخل الآن في الحدث.. كانت في منزلنا مع أختي عندما عزمت أمري بالتحدث معها، كانت ليلةً طويلةً من التفكير المرهق، لم يغمض لي جفن في ليلتها.. من الصعب لشخصٍ عاديٍّ جداً مثلي أن يخبر فتاةً أنّه يحبها. المشكلة أن فتيات مدينتنا يستحقرن الأشخاص الذين لا ينجذبن لهم، ولا يقدمن لهم بعض التعاطف أو يتفهمن مشاعرهم، فهن يعتبرن هذا فظيعاً، وأنهم مجرد أوغادٍ وربما إذا كانت فتاةً لعوباً لجعلت منهم سخريةً أمام صديقاتها؛ "ذلك الأحمق يحبني وأنا رفضته، كم رفضتن أنتن يا فتيات؟!"، وبالرغم من أنني كنت منجذباً لها إلا أنني لا أنكر أنني فكرت

بذلك، وأيضاً فكّرت أنه إذا لم تستمع لي وبدت مرتبكة وهربت كم سأبدو محرجاً بنظر جميع من يعرفنا وخاصةً أختي! خاصةً إذا سمعت القصة؛ أنني تعرضت لها في الشارع، وهذا فعلاً ما كنت أنوي فعله عندما تغادر منزلنا؛ سأتحدث معها في الشارع، وهذا ما فعلته.

كانت الساعة الرابعة والنصف عصراً عندما خرجت من المنزل لانتظارها فهي عادةً تخرج في الخامسة، ظللت في الحي قرابة عشرين دقيقةً بين سيجارةٍ وأخرى، كنتُ متوتراً جداً وتوترت أكثر عندما رأيتُ باب منزلنا يفتح وهي تهمّ بالخروج، في وقتها فكرتُ أن أنسى الأمر، أن أهرب؛ لكنّ صوتاً مِن داخلي كان يقول لي: "ماذا تفعل يا أحمق؟! إنّكَ بعد هذا الموقف ستصبح مجرد سخريةٍ وسيزداد حزنك كثيراً"، لكني تغلبتُ على كلّ هذه الأصوات ومشيت خلفها نحو الرواق، ثم فكّرتُ أنه ليس عليَّ أن أوقفها هناك؛ فمن الطبيعي أنها ستخاف، وأنه في الشارع بين الناس سيكون الأمر مريحاً لها أكثر.. عبرت الرواق بخفتها وأنا خلفها، كانت تمشي في الشارع العام وبدأتُ أصرخُ باسمها لكي تلتفت...

****

الفصل الثالث

كنّا قد وصلنا أمام فندقٍ صغيرٍ في أحدِ أحياء **الشيخ عثمان**، تغطّي بوابته الحديدية الصدئة بعضُ الأشجار المتسلقة، كان الشارع مليئاً بالبلّاعات الفائضة والمنازل العشوائية الكثيرة؛ مكانٌ ذميمٌ لا أكثر، لكنه مكانٌ هادئٌ ومناسبٌ جداً للدخولِ والخروجِ دون سؤالٍ أو أعينٍ مُراقِبة.. حينها توقفتُ عن قِصّتي وترجلت من السيارة أنا وعزيزتي رغد، دخلنا الفندق، أخذت رغد المفتاح وتبعتها أمام أعين موظف الاستقبال النافرة، كان يبدو من عروق عنقه الممتلئة أنه عصبيٌّ ولا يكاد يطيقُ حتى نفسه.. لم يكن المكان لامعاً بل كان التواضع واضحاً عليه، ولن أسرف في وصف المكان فهذا ليس موضوعنا.. استخدمنا الدرجات الخشبية للصعود؛ كانت غرفتها في الدور الأول، فتحت رغد الباب بالمفتاح الذي ناولها إياه الموظف وقالت لي بطريقةٍ استعراضية مبتسمة وهي فاردة يديها:

- تفضل.. البيت بيتك.

دخلت وكنت أنظر حولي، كانت الغرفة مبعثرةً بعض الشيء.. ثيابٌ ملقاةٌ، علبة شامبو، أكياس، أصابع روج، وأشياء كثيرة.. دخلت رغد تلملم أشياءها سريعاً وهي تقول:

- اعذرني.. كما تعرف؛ لم أتوقع زيارةً مِن أحد.

كانت الغرفة صغيرة، فيها تلفاز وجهاز تبريد صغيران، ويبدو من الانطباع الأول للغرفة أنها غير جيدة، والفندق برمته لا يعتمد على استحسان الزبائن في الذوق العام، بل على دعارته.. رجحت أن رغد استخدمته لقلة مالها، لكنني عندما فكرت وجدت أن المرسيدس تنفي ذلك! خمنت أن هناك أمراً ما غير وُلوجِها للرذيلة بالرغم من أن كل شيء كان يدعو لذلك.. لكنك عندما تتحدث وتجلس معها وتشعر بأنفاسها لا يمكنك أن تأخذ فكرةً سيئةً عنها؛ بل ويمكنك الجزم بأنها فتاة شريفة شقية.. يوجد في العالم الكثير من الأفواه شغلها الشاغل الحديث عن مساوئ الناس وهفواتهم؛ بل إنهم يبنون تصورات داخلهم بسبب حدثٍ بسيط لا يكاد يذكر، والقليل القليل من الناس فقط من يتحدثون بواقعية وعن معرفةٍ حقّةٍ للأمور.

في الغرفة حمامٌ لا يكاد يتسع لاثنين، ومطبخٌ صغير جداً لم أدخله.. كانت رغد ما تزال تلملم ثيابها وعلبها، حشرت أشياءها نحو الزاوية وانتقت من داخل حقيبتها ملابس لم أتبينها وطلبت مني الجلوس ريثما تخرج من الحمام:

- تصرف على النحو الذي ترتاح فيه يا توفيق؛ البيت بيتك.. أنت لست ضيفاً يا عزيزي.

جلست ممدداً على الأرض أشاهد سقف الغرفةِ وأسترجع أحداث يومي، أسترجع كلّ الجنون الذي حدث منذ شجاري مع أبي مروراً باكتئابي ونزولي للبحر إلى حين دخولي الفندق مع ساحرتي رغد، كانت الساعة حينها الواحدة

والربع صباحاً.. لا أعلم ما كلّ هذا الانبهار الذي أصابني تجاه رغد، هل لأنها مختلفة عنا؟! أم لأنها أصبحت مختلفة؟! لم تعاملني فتاة مثلها من قبل.. لكم هي رقيقة عندما تضع يدها البيضاء على يدي وتحاول أن تخفف من آلامي وتسكن من جروحي، عيناها تغرورق وهي تسمعني، لابد وأنها فتاة حزينة طيبة تشعر بأسى صوتي المبحوح.. كانت تعاملني وكأنها في فيلم هوليوودي كبير، وكأن المخرج أوكل لها دور الصديق والأنثى، ذلك النوع من الأفلام التي تتمنى أن تكون الفتاة في داخله صديقتك.

رن هاتفي؛ سمعت صوت والدتي على الهاتف تسألني بخوف فيما إذا كنت بخير أم لا.. والدتي هي الشيء الجميل الرقيق الوحيد في قلبي، طمأنتها بأنني بخير، وأخبرتها بصوتٍ منخفضٍ أنني في منزل أحد أصدقائي وعليها ألا تقلق عليّ، طلبت أن أعود كثيراً ولكني كنت جازماً بأنني بخير ويجب أن أبتعد.. وبعد أن هدأت قليلاً أخبرتني أن أعود عند الظهيرة لأنها ستحتاجني لشراء مصروفاتٍ للمنزل فوافقتها، أغلقت السماعة وناديت رغد أسألها:

- هل تسمحين لي بالتدخين؟!

ردت ضاحكةً وصوت الماء يسقط على جسدها:

- قلت لك البيت بيتك؛ تصرف على هذا الأساس.

أشعلت رأس قاتلتي وطفقت أنتظرها تخرج من حمامها الطويل.. خرجت وكانت مبهرةً كالشمس وقت المطر؛ كانت ترتدي لبساً طويلاً محتشماً أسود

اللونِ إلى كوعها.. اللون الأسود يجعلها مبهرة؛ فالأسود سيد الألوان، لكنها في ذلك الوقت كانت سيدته، ولكن أكثر ما أربكني هو شعرها المنسدل الطويل الفاحم إلى آخر ظهرها؛ لقد نزعت حجابها! هي غريبة عن وطنا بعض الشيء، وكذلك غير محجبة، ولم تخف مني! هي مذهلة!

أخفضت رأسي كي لا تلاحظ أنني مهتمٌ بالنظر لها؛ لقد كانت مذهلةً جداً! كنت أود أن أخبرها بذلك لكني خشيت أن ترتبك وتخاف، فكرت أين سننام؟! ارتجفت لوهلةٍ لتذكري أنني أشاهد كل هذا الجمال في الغرفة؛ فتاةٌ شابةٌ معي في غرفة واحدة وأنا مرتبك كقطةٍ وليدة.. ماذا أفعل؟!

أخبرتني رغد أن الحمام جاهزٌ إذا أردت استخدامه، ثم قالت وكأنها لاحظت:

- انظر إلى وجهي؛ لا ترتبك.. أنا أعرف أنك رجل جيد، ولو أردت أن أرتدي شيئاً على رأسي سأفعل..

قلت لها:

- لا.. هذا منزلك يا عزيزتي، كوني على سجيتك كما أنّي على سجيتي.
- على سجيتك ورأسك منخفض؟! (قالتها ووجهها وشفتاها مفرودتان وكأنها تسخر من خجلي).
- أووه! أنا فقط متعب قليلاً كما تعرفين.. حسناً؛ أنا بخير، وها أنا أنظر لوجهك الجميل.. تعرفين أنكِ فتاةٌ نادرةٌ بالنسبة لي، أشعرُ أنّكِ لو قرصتِني الآن سأنهض وسيتحول هذا اليوم إلى... إلى ماذا نقول؟! وكأنه

لم يكن! هل تعرفين أي مزحة هذه؟! هذه أسخف مزحةٍ يعاقبني الليل بها لسهري وإرهاقي.. سمعتُ أنّ من ينامون بعد عملٍ شاقٍّ لا يحلمون، وهذا بالتأكيد لن يحدث.. إنك فتاةٌ لا أملّ من النظر إلى وجهها ولو فعلت ذلك طوال الليل يا عزيزتي.. فقط لا ترتبكي؛ فأنا لن أفعل ذلك إلا وأنتِ ساهرةٌ ولن أضايقك..

ضحكت كثيراً وهي تغطي فمها بظهرِ كفّها، وقالت متهافتة:

- إنك رجلٌ ظريفٌ وغريب، أنت من الطراز الذي يعطي للمرأة حقها. لم أعلم أنك هكذا! لسانك يقطرُ عسلاً، وأفعالك جداً خجولة.

ثم قالت وقد توقفت ضحكتها:

- أنت ظريفٌ حقاً يا عزيزي ونبيلٌ جداً، لكن قلبك لا يخبرك بذلك، يبدو أن إناث هذه المدينة أصبحن لا يتحدثن.
- أنا أصبحتُ غيرَ مرئياً!
- لستَ كذلك، فأنت واضحٌ بالنسبة لي؛ نُبلُك واضحٌ وشهامتك ورجاحة عقلك.. أنت حقاً رائع!

قالت ذلك وهي تذرع إلى زاوية الغرفة لتلتقط شيئاً كان مرمياً بإهمال ثم أردفت:

- هيّا! الحمام جاهز، ادخل إليه بينما أرتب مكاناً تنام عليه.
- لا أعتقد أنني سأنام.. (قلت ذلك ونهضت إلى الحمام).

وعندما خرجتُ؛ وجدت السرير مرتباً إلا من وسادة، كانت الوسادة على الأرض معَ بطانيةٍ تلتحفها رغد.. وطبعاً لم أوافق على هذا المنظر، أصررت وهي أصرّت على من منا ينام في السرير.. وأخيراً انتصرتُ أنا ونامت هي على السرير، استلقيتُ على الأرض وكنت أنظر إلى سقف الغرفة وأتعمد عدم النظر إليها ومضايقتها.. قالت:

- هل سيضايقك لو شغّلت أغنية؟! أحب الاستماع إلى الموسيقى عند النوم.

- لا.. فأنا أيضاً أحب الموسيقى.

هدر من هاتفها أغنيةٌ لأمِّ كلثوم:

"غنيلي شوي شوي

غنيلي وخذ عينيا"

هي لا تعرف كم تعجبني كلمات هذه الأغنية!

"خليني أقول ألحان

يتمايل لها السامعين"

كتبها محمود بيرم التونسي.. لا أعرف بأيّ حالة كتب هذه الكلمات، لا بدّ وأنه كان منتشياً جداً.. كنت أتخيل دائماً أن فتاةً جبارةً هي من كتبت هذه الكلمات، دائماً ما أهتم بالكلمات وليس المغنّي، ربما لأن المغني يثبت نفسه بعكسِ الشعراء الذي يؤكلُ حقهم.. وعندما عرفتُ أنَّ رجلاً كتبها عجبتُ للشعور الذي كان يخالطه وهو يكتب هذا الشعر المتقن في الوزن والقافية بالرغم من

عدم كوني شاعراً، لكن من وجهة نظري المحبة للأغنية خاصّةً في الجزء الذي يقول:

"خليني أقول ألحان

يتمايل لها السامعين"

أيّ شعورٍ عجيبٍ وأيّ زهوٍ كان يتملكه!

قالت – بينما كانت الأغنية لازالت تهدر – وكان صوتها يتعمد الهدوء في نبرته:

- هل تحبّ أم كلثوم؟
- أنا أهتم بالأغنية أكثر من الفنان، إذ أنه أحياناً قد يغنّي أغنيةً لا تتناسب مع صوته فيصبح مزعجاً.

قالت وكأنها تقفز بصوتها ووجهها نحوي:

- هذا ما يجب أن يكون حتى – على سبيل المثال – للحاكم؛ يجب أن نحبّ أفعاله، ونحترم قراراته الصائبة، وليس أن نحبه لشخصه؛ هكذا يفعل الغرب يا عزيزي، لن تجد أحداً منهم يمجّد الحاكم مهما كانت أفعاله، ولماذا قد يفعلون ذلك وهم يعتبرون ذلك العمل مجرد خدمة يتقاضون الأجر مقابلها؟! أيضاً إذا دخل الشخص منهم المعترك السياسي فضَّلَ حياته السابقة، ولهذا هم يتخلون عن مناصبهم بكلّ هدوء.

أنهت حديثها وعادت لتضع رأسها على الوسادة وأكاد أجزم أن وجهها احمرّ وقتها.

- هههه.. أخبريني؛ هل أصبحتِ سياسية؟!
- لا.. لست كذلك، لكن حياتنا عبارة عن سياسة كبيرة، أنت أكبر سياسي فيما يتعلق بداخلك، فيما يبرمه حزنك عليك، حينها تصبح سياسياً كبيراً، تجمع أطرافك كلها وتخرج بأقل الخسائر، ولكنك تفشل يا سياسي وتفضل الحرب.

قلت وما زلت أحدق بالسقف كحبيبتي:

- وهناك طرف آخر يبكي بينما أنت لا تعرف!

"احلفلك برب البيت
يا مصدق برب البيت
لأسحركم إذا غنيت
وأرقص بنات الحي
شوي شوي"

قلت:

- أخبريني – يا رغد – لو أردتِ التحدث؛ لماذا أنتِ هنا؟!

قالت وكأن صوتها تغير قليلاً بينما وجهها ازداد حمرةً كالجمر:

- أنا هنا لأن الحياة قاسية بالنسبة لي، لكنني بخير معك الآن، ولا أود ذكر المزيد.
- أعتذر.. لم أقصد إزعاجكِ، اعذريني؛ الحق على عينيكِ أقصد لساني.

قالت بعد ضحكة قصيرة:

- لا عليك يا عزيزي.. لا تشغل بالك عليّ.

كانت الأغنية ما زالت تهدر، وبدأت رغد بالدندنة معها ولا أعلم كيف بدأتُ إغماض عينيّ، تسرب النعاس إلى جفوني وشعرت بأنها ثقيلة وليست قابلة للفتح.. فجأةً أدركت أن الأغنية توقفت!

****

أنا الآن أرى ابتسامة رغد الحلوة؛ كانت ترتدي معطفاً أنيق الشكل، كانت حلوة الشكل رقيقة الوجه وهي بجانبي؛ نقطع الشارع الرئيسي الطويل، في ذلك اليوم اتصلت بي لتخبرني أنها تودّ المشي معي.. قالت ذلك دون كلفة: "ماذا لديك اليوم؟ لا شيء؟! إذاً لنخرج!" هكذا ببساطة كأيّ صديق يفعل ذلك.. مشينا في الطريق العام، كان شعرها الأسود يسدل من معطفها بجمالٍ رباني مذهل، وعروق يديها الخضراء من شدة بياضها تلتحف أصابعي.. كانت ذات نظرة نافذة؛ لكنها طفلة، كانت ذات روح زكية منفعلة؛ لكنها طفلة.. يمكنك على حين غرّة أن تداعب وجنتيها كما تفعل لطفلٍ صغيرٍ شاهدته في الشارع، وأحيانا عندما تتحدث لا يمكنك أن تصرف عينك عنها؛ تظل تراقبها وتحرك عينيك مع شفتيها بكل شغف وانتباه.. مشينا في الشارع عدةَ دقائق

دون حديث، وفجأةً وعلى حين غِرة قالت وقد هزني ما قالته وكأن أحدهم صفعني على خدي! تحدثت بينما الحمرة كست وجهها:

- ماذا تعتقدني؟! هل تعتقد أنني رخيصة إلى هذا الحد أو غير مبالية؟ هل تعتقد أنني أخرج مع أي شخص أعرفه؟ أن التحف يديه بهذه الطريقة؟! أنا أقول: هل تتصور ذلك؟! لا أعلم كيف لا تشعر بما أشعر! ماذا أفعل أكثر من ذلك؟ اسمعني.. اسمعني جيداً، ربما أبدوا مختلفة عنك، عن نساء المدينة الأقحاح؛ لكن هذا لا يكفي لأن أفعل ذلك، أنت لا تفهم، متى تفهم أنني أقبّل أصابعك كلّ ليلة وبكلّ شغف؟! وأنت يعلم الله ماذا تعتقد.. تنام معي في أغلب الأيام، تنام على سريري؛ صحيحٌ أننا لا نفعل شيئاً، ولن نفعل شيئاً لأنني أقدح هذه الفكرة، لكنّه عمل شائن بالنسبة لفتاة. انظر إلى هذا الرجل، لو قلنا له أننا ننام في سرير واحد ونحن أصدقاء؛ فقط أصدقاءٌ لا رابط بيننا إلا الصداقة، ماذا تعتقد بأنه سيفكر بي؟! سيعتبرني مجرد بقة داعرة.. أخبرني - يا عزيزي - هل تحبني؟! أم أنني أفعل كل ذلك ليذهب أدراج الرياح؟ لا أفهم ماذا عليّ أن أفعل عندما أصير وحيدة، أصبحت لا أنام خجلاً مما أفعل، وإذا غفوت أحلم بكوابيس تتعلق بنظرات من أحترمهم لي، وعندما أكون معك وتكون إلى جانبي أنسى كل شيء.. لكنني ما لبثت أن قررتُ أن أصارحك بكلّ شيء، أن أخبرك بكلّ ما في نفسي.. لن أظلّ أغلب يومي أجوب الغرفة

ذهاباً وإياباً قلقاً وانتظاراً لمجيئك، وعندما تعود لا أستطيع الارتماء بأحضانك كأي فتاة يأكلها القلق على حبيبها وتسأله لماذا تأخر.. صحيح أنني أسألك ذلك وربما بغضب؛ ولكنني إن فعلت ذلك لا أفعله إلا تحت ستار الصداقة وذلك يعذب قلبي ويمنعني عن البوح والخوف وضربك لشدةِ قلقي عليك، ولكنني اليوم قررت أن أنهي ذلك بسؤالي عن كل ذلك الذي يعذب قلبي وإن أفاض ذلك إلى عذابٍ آخر؛ لكنني لا أحتمل الموت البطيء، اكتشفت أنني لا أتحمله.. أنا الآن أسألك بكلّ صراحة وأجبني أرجوك ولا تخدعني، ناشدتك الله ألّا تخدعني: هل تحبني؟!

كانت عيناها محدقتين بي على اتساعهما، وشفتها السفلى ترتجف قليلاً، كان واضحاً أنها تودّ اصطناع القوة بينما تسمع ردّي.. بينما أنا بدأتُ أرتجف وكأن مسّاً كهربائياً أصابني، شعرت بكلّ شعرة في جسدي تقف، عمودي الفقري يرتعش كسمكة من تحت ملابسي.. صمتُّ قليلاً قبل أن أنطق:

- ماذا؟ ماذا تقولين يا رغد؟!
- أجل؛ كنت أعرف ذلك، ربما هو اختلاف الطبقات.. لا تقلق لقد طرحت احتمال ذلك في رأسي.

قلتُ مشدوهاً:

- اختلاف طبقات؟!

- لا أتحدث عن كونِ أحدنا أفضل من الآخر، بل ربما اختلاف الأفكار، ربما أنت لا تريد فتاةً شاهدتها من قبل، هنا يقولون (سلعة مستخدمة).. ما أسخفني وما أسخف قلبي! لم أعتقد أنني سأحب رجلاً من هذا النوع، الأمر يبدو كالمعجزة، عندما تسمع عن هؤلاء الأشخاص وأنت في مجتمع آخر فتقول أي عقليات هذه؟! كيف يفكرون؟! كيف يقبلن نساء تلك المدينة بهذا الكلام؟! كيف يحببن هذه الأشكال؟ ثم تسمع عن خيانة الزوجات الكثيرة فتفهم الأمور وتبدأ الفكرة تتشكل في رأسك. لا يمكن لكل المدينة ألّا تتزوج؛ ولكن الأغلب يعيشون على الخيانة.. لكن عندما تعيش في المدينة التي نتحدث عنها (كما حصل معي مثلاً) تجد أن الأمر مختلف، تحدق في وجوههم فترتسم الأشكال في مخيلتك، وتحدد الطبائع.. هم ليسوا جملةً واحدة سيئين، كما أنك لن تعرف أنهم سيئون فذلك لا يكتب على الجبين، من ثمّ عندما تستحقر جنس مدينة بأكملها ثم تفهم خيانة الطرف الآخر؛ لا تسأل نفسك مع من يقومون بالخيانة، أليس مع الطرف ذاته والعقل نفسه الذي استحقرته؟! ثم تكتشف أنهم يتحدثون عن مدينتك بنفس الطريقة فتتشكل عندك الرؤية مرة أخرى أنها مجرد شائعات.. طريقة تفكير واحدة سائدة، هم يبررون تزمتهم بأننا منفتحات وطرق خيانتنا سهلة، وقد تكون شكلاً عادياً من أشكال الحياة، ونحن نبرر انفتاحنا بأنهن متزمتات ولا يوجد امرأة تقبل بهذا الوضع وتريد المرأة

أن تتنفس (وبطبيعة الحال يجب على الجنسين أن يتقابلوا) ولهذا يمارسن الفاحشة دائماً وكلما سنحت لهن الفرصة، وربما أشياء أكبر وأكبر.. اكتشفت أن كل هذه أفكار سائدة، كما أن سطوة المجتمع تتغلب على المظلوم نفسه بل وتغير رأيه وفكرته حتى يحب أن يكون مظلوماً ويدافع عن ذلك ويبرره أكثر من الظالم نفسه، لذلك لا تتحدث عن جنسٍ واحد متخلف في بيئة يعيش فيها جنسين بنفس الطريقة.

في ذلك الوقت لا أعلم لماذا لم تخرج من لساني كلمة واحدة؛ كنت صامتاً كالقبر وكأن أحدهم ألجمني، حاولت أن أتحدث وكنت أتصبب عرقاً بشدة، توترت حتى أن ذلك منعني من الحديث ووجه رغد الخائر يتحاشاني قدر الإمكان، أعتقد أنّي دُست على كبريائها.. أنا أراقبها الآن بينما هي تبتعد بالحديث وتقول:

- لا تشغل بالك ولا تهتم، لا يمكنني أن أجبرك على شيء، أنت رجل رائع.. لا تلتفت لكلماتي المتهورة، إنّي وإن قلتها فإن ذلك فقط لضيقٍ شديدٍ في قلبي، لكنّي الآن هادئةٌ وأعرف ماذا أقول، في الحقيقة لو تعرف حقاً لتألمت جداً.

أشاحت بوجهها وقد كسته الحمرة كالجمر، ثم عادت لتقول:

- هل رأيت يا صديقي؟ ما زلتُ أهذي.. (أشاحت عن وجهها بابتسامة لطيفة ولكنها مصطنعة) لا تفكر كثيراً، سنظل أصدقاء و...

قاطعتها بغضبٍ وكأنني خيلٌ هائجٌ ينزع لجامه ليتحدث:

- توقفي!

قالت بينما ترجع رأسها للخلف باستغراب:

- لكن لماذا؟!
- أنتِ لا تفهمين.. لا تفهمين!
- لا أفهم ماذا؟!
- أنا أحبك، بل أحبك جداً. أنا لا أصدق أنك تقولين هذا الكلام، لم أكن أتوقع ذلك.. انظري! أنا أرتجف، عندما أتحدث معك أرتجف. هل نسيتِ – يا رغد – كل شكواي إليكِ؟ كنت.. كنت أظنك تفعلين كلّ ذلك بشكلٍ عفويّ، ولم أكن أودّ أن أؤذيكِ بمشاعري. ما أغباني! ما أسخفني! أضعتُ كلّ ذلك الوقت.. ليتني اعترفت بكل مشاعري منذُ زمنٍ طويل.. هل أنتِ حقيقة؟! أحقاً تكنّين كلّ هذه المشاعر لي؟! لماذا لم تخبريني من قبل؟! أوه! أعرف أنني الرجل وأنا من يجب أن أتحدث أولاً لذلك كنتِ غاضبة مني ومعك كلّ الحق، لكنني أخبرتك أن حظي سيء بالنساء وأنك مختلفة جداً.. أنا لم أتحدث عن الحب لأنّي حاولت أن أحتفظ بك، فكما أخبرتك أنا لن أتحمل أن تبتعدي.. لكنك تحبينني، تحبينني كما أخبرتِني.. أووه يا لغبائي! كيف ذهبت عني حسبة ذلك؟!

كان من الواضح أنني أرتجف عندما أنهيت كلامي وأسناني تصطك وعيناي محمرة جداً.. رأيت الذهول في عين رغد، اقتربت مني وأخذت كفّي بكلتا يديها ورفعتهما إلى الأعلى إليها وقالت وهي تقترب من وجهي شاحبة:

- توفيق! هل تتحدث... اسمعني: سأموت لو كنت تقول ذلك خوفاً على مشاعري، هذا يقتل أنثى عاشقة، هذا أكثر شيء يدمرها. توفيق! هل أنت بكامل عقلك؟! أنت تعرق بشدة!

كانت كلماتها بطيئة وكأنّها رجل آلي يتحدث، لكني قاطعتها بقوة:

- هل أنتِ حمقاء؟! أقسم أنني أحببتكِ من أول يوم، أقسم أنني أحببتك قبل أن تحبيني، وأقسم أنني أحبك أكثر من حبك لي، بل وأقبل أن أظل عاشقاً لكِ من جانبٍ واحدٍ طوال عمري.. لو تعلمين كم أحبك! لو تعلمين ذلك، لو تعلمين فقط.. لن يكفي كلّ العمر سعادة لحظة كهذه يا رغد.. إن الغبطة لتملؤ قلبي، أشعر بأنني سأتهاوى ورجليّ ستخذلانني.. أقسم لك أنني أحبك، وأنني لأشعر بأنني في حلم. أرجوك يا رغد اقرصيني، افعليها! أنا حقاً أودّ أن تقرصيني.

ارتمت رغد على صدري ودفنت وجهها الفاتن داخل صدري، وقبضت على ثوبي بكلِّ قوّتها لتدفن رأسها أكثر، وبكت بكاءً شديداً أقرب للانتحاب!

وبعد بكاءٍ طويل؛ رفعت رأسها نحوي وابتسمت ابتسامةً تنمّ عن وجهٍ شاحب ممتقع، لكن ذلك الجمال ما يزال يتعرج على ملامح الطفولة ليزيدها

الشحوب فتنة.. كان هناك شاب يرتدي بذلةً تتبع الموضة التي يتداولها الشباب في الآونة الأخيرة، كان يرمقنا بفضول أقرب للحنق لكني لم أعبأ به.. مشيتُ أنا ورغد على الخط الرئيسي لشارع "المُعَلّا" الطويل نسبياً وكلٌّ منا قريبٌ من الآخر، قالت:

- سأحبك طوال العمر، ولن أفرط بلحظةٍ واحدةٍ أكون فيها معك.

كان الشارع الطويل أمامنا، أمسكت يدها وهممنا بقطع الشارع.. لم أعلم من أين أتى ذلك الصوت! صوتُ سيارةٍ مسرعةٍ تسيرُ نحونا، يبدو أن السائق لم يرنا إلا في اللحظات الأخيرة.. تصلبت رجلي لحظتها ولكني استطعت دفع رغد بكل ما أوتيت من قوة!

أراها الآن مرتميةً بجواري على سريرٍ أبيضٍ في المستشفى وشعرها الأسود على صدري، هي خائفةٌ وأنا من أنقذها من حادثٍ مروريٍّ سيء.. صدمتني السيارة، لكني لا أشعر بالألم، ولن أشعر به مادام شعرها على صدري..

****

يا له من حلمٍ رائع! أتمنى ألّا تمسكني متلبّساً أصرخ باسمها وأنا نائمٌ جوارها في الفندق! (لم أحكِ لسامر عن كلِّ حلمي واكتفيتُ ببعض التفاصيل فقط)..

نهضت عند الثانية عشر ظهراً، سرحتُ لبعضِ الوقتِ كي أستوعبَ ما حصل، التفتتُّ يميناً ويساراً فوجدتُ نفسي لا أزال في الفندق ورغد على السرير

بشعرها الأسود الطويل المنكوش على جسدها.. شعرتُ ببعض الغصّةِ حين اكتشفتُ أن اعترافها بحبها لي كان مجرّد حلمٍ لا أكثر.. وليته كان حقيقة!

بدأت بالنهوض، ولو أخبرني أحدهم أنني سأشاهد هذا المنظر لما صدقته! كانت تبتسم نحوي وهي تهرش شعرها، دبّت الروح في جسدي فجأةً عندما رأيت ابتسامتها، كان جمالها أخّاذاً جداً، يأخذك نحو البعيد.. لقد بدت وكأنها "صباحُ خيرٍ" يستيقظ، لاحظت فعلاً أن عينيها سوداء متسعة وبشرتها بيضاء مما يجعلها متناسقة الجمال جداً..

قالت وهي تتمطى:

- صباح الخير يا عزيزي، كيف كانت ليلتك؟! لن تخرج إلا بعد أن تشرب الشاي الذي سأعدّه لك بنفسي.

استيقظت لأغسل وجهي بقطعةِ صابونٍ كانت مرميةً في الحوض، أعتقد أنها لا تزال قابلةً للاستعمال، لم أغسل أسناني لأني لست في منزلي.. أخذت أرتدي ثيابي الخارجية فقط بينما هي تمشط شعرها الفاحم الطويل وتتجه نحو المطبخ.. ما زلت لا أصدق أنني معها! لا أعلم كيف وجدتني لتفعل ذلك معي؟! لا أعتقد أن هناك خطبٌ في عينيها، بل ربما الخطب في العالم الذي نعيشه، الكون المغلق، ربما كانت هي الحقيقة الوحيدة على متنِ هذه البسيطة.

هذا صباحٌ فائق الروعة..

في صباحِكَ فتاةٌ يتدلّى الليلُ على كتفيها

يا موشحات فيروز، يا فيروز!

غنّوا لأجلي،

لسود عينيها،

لأجلِ هذا اليوم..

فلترقص القهوة!

****

اعترضتها قبل أن تصل للمطبخ، سألتها إن كنا سنلتقي أم أنّي سأعودُ وحيداً؛ قلتها وخرجت كمزحة واستقرت داخلي كحسرة، لمست يدي تربت عليها بلطف، ثم فجأةً تأبطت ذراعي وهي تقول بمرح:

- الآن لو أردتني أن أذهب معك وأترك كل شيء لأجلك سأفعل.

سألتها مرة أخرى:

- هل سنلتقي؟!
- طبعا يا عزيزي، ما رأيك أن نلتقي غداً؟
- أين؟!
- مطاعم الحمراء، والحساب عليّ.
- الحساب ليس مشكلة، اتفقنا!

وغادرتُ دون أن أشرب الشاي، ووعدتها أن نشربه في الحمراء.

****

الليلة الثانية

الفصل الأول

ذلك العجوز وصديقه يتحدثان حول القهوة، هناك مجموعةٌ من الشباب وفتاةٌ واحدةٌ يبدو أنهم مقبلون على مشروع عملٍ واحد؛ فوجوههم الجادة والحاسوب المحمول يدلان على ذلك.. حفلة عيد ميلاد صاخبة من الجهة الثانية للسياج الخشبي الذي يفصلني عن العائلات، ولأن رغد لم تصل بعد؛ فضلت الجلوس في مكان الشباب تحسباً لأي مفاجآت، الحفلة مليئةٌ بالحسناوات المتجمعات حول الصغيرة وكلٌّ منهم يحاول أن يُظهر كم هو يحبها، أمٌّ تشتري لطفلتها حلوى غزل البنات بينما الطفلة تهز عباءة والدتها بلطف، مُسِنٌ وقورٌ على إحدى الطاولات يدخن بوقارٍ أكبر، وأنا شابٌّ في نهايةِ العشرين أنتظر فتاةً ثلاثينيةً جميلة، ذهبت لأطلب كوب شايٍ وطفقت أنتظر، لا أعلم هل أنتظر الشاي أم حلوتي؟!

قبل مجيء عزيزتي رغد مرّ أحدهم مع فتاةٍ نحيلةٍ وطويلةٍ قليلاً ترتدي اللثام، وفي وسط طريق ذهابه إلى داخل مبنى المطعم - وأنا بالمناسبة أجلس في الباحة الخارجية أستنشق الهواء الطلق - استوقفه شابٌّ آخر بغضبٍ شديد، كانت الفتاة مرتبكةً وتوشك على البكاء وهي تتوسط الشابين، كان الأول يحاول تهدئة الوضع، كنتُ أراقب الأمور بصمت إذ لم يحدثوا جلبة كبيرة، بينما الرجل الآخر يستشاط غضباً وينظر إليهما بازدراء.. أخذوا يتناقشون بشكلٍ طويلٍ

والفتاةُ واقفةٌ بينهما مستسلمة، يبدو أنها تحاول شرح شيءٍ ما للرجل القادم، كانت تنظر لمن كانت معه بيأس، أستطيع التخمين بكلّ صراحةٍ أصناف هؤلاء لثلاثة؛ الرجل الأول وبلاهته، والثاني وغباءه، والفتاة وضعفها، بدأت أرتب الأمور داخل رأسي.. ربما الفتاة كانت تتسكع مع حبيبها بينما الشخص الآخر يعرفها، قد يكون مجرد جارٍ فضولي!

لا أؤيد أن يقوم شخصٌ ما بفعلِ أمرٍ فاضح؛ لكن الفتاة والولد في مكانٍ عام، ربما خالفوا المجتمع، لكن المجتمع لم يسمح لهم بالحياة واللقاء الطبيعي.. حدث قبل أيامٍ قليلةٍ من كتابتي لهذه الرواية في العراق أن تمّ تصوير رجل وفتاة يقبلان بعضهما في الشارع.. سمعتُ أن الأمر راج وهاج جداً هناك؛ بين منتقدٍ محترمٍ وشاتمٍ فاضح! هكذا نحن نربي جيلنا، ربما الذي صورهم في الشارع قد لا تستوقفه رؤية طفل يمد يديه ليتسول عوضاً عن ذهابه للمدرسة، ربما لا يعير انتباهاً لأمٍّ تحمل رضيعها وتتوسل اللقمة لأجله، وربما لا يستمع لرجلٍ عجوزٍ مات أطفاله في الحرب وتدمّر منزله وأصبح بلا مأوى! لقد أصبحت تلك الأحداث روتينيةً لا يستمع إليها أحد حتى لو تحدثت عنها، لكن لو كان رجل وفتاة يقبّلان بعضهما في الشارع فجميع الأعين والألسن ستتجه إليهم.. مشينا على هذا الدرب وأصبحنا سخيفين وسطحيين جداً، نرى ضياع الإسلام في قُبلة.. أنا لا أقول إنني مع هذا الفعل، لكن عندما نتحدث عنه وسط هكذا ظروف فإننا نكون سخيفين جداً..

تلزمنا الكثير من الثقافة لنتجاوز السطحية التي نعيش فيها ونتوقف عن تجاوزنا لحريات غيرنا وتصارعَات أفكارنا التي تلزم علينا التدخل تحت وطأة الذنب.. وإذا تجاوزنا كلّ ذلك؛ ربما... أقول ربما نكون إنسانيين.

غطّت الغيوم وجه السماء الصافيةِ كما حصل في تلك الليلة الكئيبة.. لا أعلم كيف حلّ الحزن على قلبي! أشعر أنّ هناك أنهارٌ بداخلي تودّ البكاء، فتاةٌ تهرب بعكازها خوفاً مِن قذيفة، طفلٌ داخل برميلٍ يهوي، وأغانٍ حزينة من مكانٍ بعيدٍ كقريةٍ للثكلى، حزنٌ يزور قلبي يتأملني بابتسامةِ رفيقي العزيز القديم؛ منذُ البارحةِ لم نلتقي.. وأخيراً يا صديقي لقد شعرتُ أنّ لي فرحةً دفينةً تفجرت الآن مع رغد الجميلة.. لماذا تزورني الآن؟! ما المناسبة؟! لماذا تبتسم وكأنكَ مقبلٌ بقوةٍ إليّ لأرتمي على أحضانك؟! أنا حزينٌ جداً الآن يا صديقي، أعتقد أنني أمارس الحزن كما يمارس أيّ شخصٍ عاديٍّ الكلامَ.. لا أتذكر أنني فرحت ملء قلبي قبل أن ألتقي رغد، إذ كانت أفراحي عاديةً جداً وقليلةً جداً كأنها قطرات في بؤبؤ المحيط، لا أعلم هل سيكون من الحزين أن التقي برفيق جلساتي وممشاي الآن دون أي مناسبة؟! هل الحزن أشياء لا نفعلها؟ أم أشياء فعلها غيرنا؟ هل الحزن ما فقدنا؟ أم ما كسبه غيرنا؟ وهل يعد الحزن كارثة؟ الحزانى يا صديقي لا يؤذون أحداً، فهم يتجولون مع أفكارهم السوداء فحسب، يبتسمون دائماً، ويقلقون كثيراً، هم دائماً في مزاجٍ يدعو للابتسامة لا للفرح.. سمعت أحد الفتيات تقول ذات يوم:

"الاكتئابُ يدٌ تربت على قلبي.. لا يوجد لدي أحد يخبرني كم أنا جميلة، لكن لدي اكتئاب يسقيني، يسقي الأتربة داخل جوف أرضي، داخل جسدي الوحيد.. في كلّ صباحٍ وقبل بزوغ الشمس ينهض اكتئابي من نومه ليتأملني ويسقي عيني لتشرب قبل ريقي يا حبيبي.. فهل تدرك كم أنا معذبة؟!"

ثم قالت أيضاً:

"تغني بائعة الهوى مترنمةً في الشوارع ولا يبدو عليها الاكتئاب، فهناك من يخبرها - ولو للحظاتٍ - عن قوامها الممشوق، فمن يخبرني أنا يا حبيبي الضائع؟ فمن يخبرني أنا؟!

أتذكّر عندما كنت طفلةً (تقول الفتاة) قبل حوالي عشرين عاماً؛ كانت زوجة أبي تقسو عليّ كثيراً، كانت متسلطةً كأيّ زوجة أب في ذهني، كنت وحدي أمسح المنزل وأكنسه، أطبخ الطعام، أرتب غرفة المعيشة، وأعمل كلّ شيءٍ في المنزل، لقد كنتُ أعمل بجدٍّ لأجدَ راحتي من كلّ العراك بيننا، بينما كانت هي تضعُ رِجلاً على رِجلٍ وتتأملني متأففةً من عملي.. كان أبي رجلاً مسكيناً جداً؛ يأمرني أن أطيعها لأنها بمقام والدتي المتوفيّة منذ قرابة العامين في ذلك الحين، وعندما كنت أنفجر كانت ترتمي باكيةً تحت قدمي والدي وتخبره كم أنا قاسية وشريرة وأنني لا أعتبرها كوالدتي.. كان أبي يصدقها جداً، ويتأثر بها إلى حد كبير لدرجة أنه كان يحاول الجلوس معي ويستمع إلى مشاكلي ويخبرني أنها بمقام أمي، وعندما يسمع مني التنكيل يقوم وفي عينيه الحسرة وهو يقول:

"أنتِ عنيدة يا صغيرتي، حاولي أن تتغيري". كانت حالتنا المادية ميسورة، لم نكن بذلك الغناء الفاحش لكننا كنا نتدبر قوت يومنا بعملِ أبي في شركة الاتصالات. أبي رجل طيب يعمل بجدّ، كان يحب أمي كثيراً، كانت أمي تعاني من مرض خطير؛ بقيتُ أتأملها تذبل أمامي وتفارق حياتها رويداً رويداً، وكان أبي يعاني في حينها وهي من أوصته أن يتزوج، ولكن هذا ليس موضوعنا.. مؤخراً بدأتُ التنفس من غير أمي؛ فلا تزعجني بالحديث عنها!

عندما انتقل ذلك الشاب الوسيم إلى حارتنا كنت حينها في السادسة عشر من العمر؛ هذا الشاب هو حبيبي الذي أناديه، هو الوحيد من تغزل بجمالي، قال لي في مرة: "أنتِ الوردة التي ألقاها الله سبحانه على الأرض لتعمر معشر النساء." هل رأيت كم هذا غزلي؟! كم هذا مخجل بالنسبة لفتاة مثلي؟ لقد كان مرتب الكلمات جداً! كان يعيشُ لوحده، وكان عمره في الخامسة والعشرين أو نحو ذلك، وسيم للغاية وجذاب جداً.. أول مرة أتحدث فيها معه كانت عند بابِ منزلنا حين سألني: "هل يوجد ماءٌ رئيسيّ عبر الصنبور؟!" يقصد الذي يتدفق من الحكومة وليس الخزان، أخبرته أنه لا مشكلة لدينا.. كنت حينها أمسحُ باب منزلنا، كنت أراقبه منذ فترة، دق قلبي مراراً عندما بادر بالحديث معي؛ لكن حينها اكتفى بذلك وذهب، أعتقد أن عباءتي كانت متسخةً حينها بسبب الأتربة، كنت خجلة جداً وكان يبدو كفرسان الأحلام.. هل يقبل فرسان

الأحلام فتاةً متسخةً على جوادهم برأيك؟! لا تجِب ودعني أكمل حكايتي فحسب!

التقينا بعدها عند دكان الحارة حيث بادلني الابتسامة ورحل.. كان طويلاً قليلاً كطول قلبي في صبره أو أطول، كعمرِ شلالٍ يسكب الماء.. مرّ أسبوعان على تواجده، حينها قررت أن أتحدث معه ولو بشكلٍ عاديٍّ جداً، كنت حينها أهدف إلى كسر حاجز الصمت بيننا، الحاجز الذي جعلني عاشقةً وحيدةً صامتة.. عندما رأيته في المرة الأخرى كان يتحدث مع أحد فتيات حارتنا وكانت راحلةً من عنده، شعرتُ حينها بأن قلبي يتصدع والخوف يعتريني، الخوف الذي يصيب المسافر المتعجل عند ذهاب القطار.. اتجهت إليه بكلّ قوة ووقفت أمامه؛ لا أعلم ماذا كنت أفعل حينها، قلت منفعلةً وكأنّي أرمي جهاز التحكم على الجدار كما يفعل والدي حين يكون منفعلاً:

"ماذا كانت تفعل معك لو سمحت؟!"..

لا أعلم من أين أتتني تلك الجرأة، ولم أكن أعلم ماذا أقصد بذلك.. بلعت ريقي مرتين وفكرت كثيراً؛ كيف سأبرر ذلك، ولكنه أجاب ببساطة:

"هل تخرجين معي؟!"..

تجمدت عيني نحوه، لم أكن أعلم هل يسخر مني أم أنه حقاً يود الخروج معي! صمتُّ قليلاً، لكنّه فهم سكوتي وقال:

"بصراحة؛ أود الخروج معك مذ رأيتك أول مرة أمام منزلك."

كنتُ سأبكي حينها من فرط ما خفق قلبي الذي كاد أن يفضحني حينها، لكنني ابتسمت ووافقت، لا تعلم كم كذبةً كذبت على أهلي لأخرج معه، لكنني فعلت.. مشينا في طرقاتٍ طويلةٍ واصطحبني إلى أماكن كثيرة جداً، كان خجولاً بعض الشيء ومرتبكاً قليلاً، لقد كان يعجبني جداً.. كان يلمس يدي من حينٍ لآخر، كان يحب القراءة والروائيين، أخبرني كثيرًا عن الكتب وهو يتصنع الثقة ويضع يديه داخل جيبه.. كنت في داخلي أتمنى تَلَحُّفَ يديه كأيِّ زوجين؛ ولكنني كنتُ أخجل، أخجل كثيراً.. كان مثقفاً جداً وحديثه مفهوم ودائماً له زاوية مختلفة عن الجميع؛ يفاجئني بها ويقنعني كذلك دون علمٍ منه.. مشينا على خط "ساحة العروض" في "خور مكسر" وقدّم لي المثلجات.. كان يشبه حلماً يتحقق، قال لي:

- هل قرأتِ الكثير؟

لكني التزمت الصمت.. فأعاد قائلاً:

- ماذا؟! ألم تقرئي أيّ شيء؟

ابتسمتُ بخجلٍ..

- لا بأس يا عزيزتي..

وبدأ يحكي لي الكثير عن قصص **سومرست موم** و**أجاثا كريستي** و**مكسيم غوركي**، وقصته بين الناس، و**جامعياتي**، وأخبرني أن سرده مميز ورتيب وكأنه يقودك معه نحو عالمه الخاص.. هو شخصٌ يعيش في عالمٍ عاديٍّ مثلنا، لكنّ ما

يميزه هو قدرته على الكتابة، لذلك هو يستطيع جعل هذا العالم العادي عالماً مدهشاً.. أخبرني أنه لم يقرأ الكثير بعد، ولكنه يحب القراءة.

وكلما مشينا مع بعضنا كان يلقي القصائد أمام البحر، أمام الطرقات، بين المداخل والمخارج، وحتى أمام القطط المسنة.. قلت له:

- ألا تخاف أن تُرمى هذه القصائد هباءً؟!

نظر لي وأشار لي أن أقترب بأذني، فهمس فيها:

- القصائد على جسدك لذا لن تُمحى، وأنا أدعوا كلّ شيءٍ ليشهدَ أننا معاً.

شعرتُ أنّ قلبي سيتوقف ووجنتيَّ تخفقان حرارةً.. مضيتُ بينما بائع (الطعمية) العجوز يبتسم بعطفٍ وهو ينظر إلينا.

لاحظت زوجة أبي أنني سعيدةٌ في الآونة الأخيرةِ ولستُ كثيرة المشاكل، بقيت تسألني كثيراً بعجرفةٍ لكنّي كنتُ أنفي أيّ جديدٍ طرأ في حياتي.. كنت أرمي بكلّ مشاكلي لحبيبي عند كلِّ فرصةِ لقاء تمني النفس عن السأم الطويل الذي سأمته حتى ملابسي – يا رجل – من هذا القرف الذي أعيشه!

ما زلت أتذكر ذلك اليوم؛ عندما تسلّلتُ خِلسةً ليلاً وخرجتُ إلى منزل جاري الحبيب أطرقُ الباب، نحنُ نعيش في حارةٍ هادئةٍ ينامُ سكّانها في وقتٍ مبكر. كانت الساعة حينها تقترب نحو الواحدة ليلاً، لا أعلم أيّ جرأةٍ تملّكتني حينها، لكنني كنتُ أبكي وكانت السحب تمطر.. فتح الباب دون أن يسأل عن الطارق، كان يرتدي فنيلةً زرقاء وسروالاً قطنياً للنوم، تفاجأ عند رؤيتي؛

لكنني دخلت بسرعة.. كانت تلك المرة الأولى التي أدخل فيها منزلاً غير منزلي. لقد تكبدت الطفلة الـ.....، هل لي أن أحكي بصفة الغائب؟! فقد سئمت طريقة الراوي الذي يعيش الحدث. حسناً إذاً، لقد تكبدت الطفلة المآسي داخلَ قلبها الحزين، ففي صبيحة ذلك اليوم تقدم خاطبٌ يعرف أباها كي يطلبَ يدها.. كان شابّاً عادي الملامح، يعمل مع والدها في الاتصالات.. رفضت بكلِّ قوةٍ دونَ مبرّر.. كان والدها متفهماً على الطريقة الحقيرة، قال لها: "يا ابنتي لا أحد سيجبرك على الزواج؛ أنتِ حرة، لكن لماذا لا تريدينه؟! هل هناك من تعرفينه؟! ابنتي أنا تعرف شخصاً آخر؟! هل هكذا أقول للناس ليأكلوا وجهي؟! أم أخبرهم دون سببٍ ليسخروا مني؟! لماذا لا تريدينه وهو شابٌّ جيّدٌ على كافة الأصعدة؟! أخبريني عن السبب! لا تقولي أنكِ لا تحبينه وكلام التلفاز الفارغ، فالحب بعد الزواج يا حبيبتي، وغير ذلك محض هراء. عموماً؛ أنا لن أضغط عليكِ لكنني سأمهلكِ إلى الغد، إما أن توافقي أو تخبريني سبب عدم موافقتك."

كانت تحكي كلَّ ذلك وهي على الكنبةِ بجانب حبيبها الذي ارتدى قميصاً رياضياً أزرق اللون ليخفف من توترها.. أردفت الفتاة أيضاً:

كان لزوجةِ أبي دورٌ كبيرٌ في ذلك؛ إذ كانت تودّ التخلص منّي وإخراجي بأيّ طريقةٍ من المنزل. هي كانت تظنّ أن ذلك سيدمرني، وأعتقد أنها راهنت على شغالةٍ تحضرها للمنزل بحجة أنها تقوم بكلّ شيء لوحدها.. في ذلك اليوم

خرجت الفتاة من غرفتها بعد أن بكَت طويلاً – التي هي أنا لو اختلط عليك الأمر – لتشرب بعض الماء مروراً بغرفة والدها وزوجته، سمعتها تصرخ: "زوّج الفتاة! لا يوجد أفضل من الستر، الفتيات في هذه الأيام طائشات، كما أنني أعتقد أنها خائفة لأنها لا تزال صغيرة؛ لكنها ستعتاد على ذلك وتتحمل المسؤولية". كان صوت أبي لا يظهر، بينما هي كانت تصرخ: "أعذار الفتيات واهية؛ لا تقتنع بِها، سيسخر منا الجميع لأننا فرطنا بعريسٍ كهذا.. أنت تعلم أنني لا أنجب، ولكني أعتبرها مثل ابنتي".. أعتقد أن نقطة عدم إنجابها هي ما كانت تحارب فيها الفتاة وتعتقد الفتاة أن والدها كان يعلم بشأن عدم قدرتها على الإنجاب وتزوجها رغم أنها كانت مطلقة كي لا يفضّل على فتاتِه فتاةً أخرى أو تشعر بالغيرة. ليته لم يفعل ذلك، ليته لم يتزوجها.. عادت الفتاة إلى غرفتها حزينةً تفكر متى تلتقي حبيبها قبل فجر صباح اليوم التالي.. هذا يفسر كل المشهد، ولو كنت شخصاً غريباً ماراً من البعيد وسمعت عن فتاةٍ تسهر الليل في بيت رجلٍ وحيدٍ لساورتك الأفكار الدنيئة ولا شيء غير ذلك، لكن فتاتنا الصغيرة لم تكن كذلك. (كان صوتها هنا يتهدج) واصلت قائلة:

عندما انتهت من حديثها معه، كان ذلك الرجل هادئاً في مكانه، ولا يبدو عليه التأثر.. كانت إضاءة الغرفة ضعيفةً؛ ربما لم يحبب تشغيل النور. كانت ملامحه محجوبة عنها، وعندما نادته لم يجب بل ظل ينظر للأرض، قامت صغيرتنا لتنظر إليه، اقتربت من وجهه وأمسكت يديه.. كان يبكي! لم تتوقع هذه المفاجأة!

لم تتخيل أن هناك نهر يبكي، رياح تحزن، أدركت أنها أحدثت عاصفةً في هذا المنزل.

تزوجت الفتاة من الرجل، وغاب عنها هذا الحبيب منذ اليوم الثاني لبقية العمر.. قالت لي قبل أن تغلق الخط: "كما اتفقنا؛ لا تتصل مرةً أخرى.. وسأخبرك بأمرٍ أخيرٍ لتلك الليلة: لقد شعرتُ أنّني أحدثتُ عاصفةً لذلك رقصت له، خلعتُ معاني العاداتِ عن رأسي، وكشفت عن جميعِ المعاني التي تحتويني، ورأيت الشيءَ الكبير يصغر مع رقصي كلما هجت ومجت. لن يُقهَر هذا الحبيب، لن يزرعني ليقطفني غيره، سيأخذ ما حصد، لست ناكرةً للجميل. تقول إنني فعلت ما سيتوقعه غريبٌ مار؟! أنا رائحةُ عطرٍ كشفت ساقها في بيتٍ مهجورٍ لتحييه؛ هكذا قال بينما أنا راحلةٌ من منزله."

****

الفصل الثاني

رَوَت لي الفتاة كلّ ذلك على سماعةِ الهاتفِ في ليلةٍ حزينة، كنت أضرب الأرقام عشوائياً لأحكي مع أيِّ فتاة، وعندما ظهر لي صوتُ فتاةٍ أخيرًا أخبرتها بحديثٍ كاذبٍ وانفجرت لتحكي لي هذه الحكاية بعد أن أكدتُ لها أنني لا أعرفها وأنني شخصٌ حزينٌ ضرب الأرقام بعشوائيةٍ فحسب.. وعدتُها كلّ الوعد أنني سأمحو رقمها ولن أتواصل معها مرةً أخرى، وهكذا فعلت.

هذه الفتاة أخبرتني أيضاً أنها لم ترقص لزوجها أبداً كما فعلت مع حبيبها الذي أسرها وظَهَرَ في حياتها لأيامٍ ليست بالكثيرة.. أعتقد أن هذه الفتاة تشبهني، بصوتها تشبهني، بحزنها تشبهني، أعتقد أن وجهها أيضاً يشبهني.. الحزينون دائما متشابهون، ألا تعتقدين أيتها الطاولات أننا متشابهون بشكلٍ أو بآخر؟!

خلف السياج الذي يحيط بالمطعم رأيتُ رغد تقبل إليّ، ترتدي عباءةً حمراءَ غامقة اللون تقترب للون دم الغزال، وخمارٌ أبيض لامع يغطي رأسها، كانت تمشي منتصبةً وبخطواتٍ رقيقةٍ وكأن الليل يغني على ممشاها.. لم أصدق أن هذه الأنيقة كانت نائمةً معي البارحة! لقد كانت جميلةً إلى حدٍّ لا يُصدَّق؛ خاصةً عندما دخلت ولمحتني، ابتسمت وهي مقبلةٌ إليّ، أعطتني يدها مصافحةً وهي تقول:

- كيف حالك؟

- بخيرٍ يا عزيزتي، بخيرٍ جداً.. أنتِ أجمل مما كنت أتوقع، ولو أغمضتُ عيني الآن سأقولُ أيضاً أنكِ أجملُ مما رأيتكِ الآن.

ابتسمت بخجلٍ، وأردفت:

- وأصبحت تغازل.. هل سنبقى هنا أم...

قاطعتها:

- بل إلى الداخل؛ قسم العائلات. (وفي سرّي: يا من أريدكِ عائلتي).

لن أبالغ لو قلتُ إننا كنا أفضل اثنين على الطاولة، بل كانت هي أفضل شخصٍ في المطعم.. كان حولنا عائلات كثيرة وهناك أيضاً القليل من الثنائيين مثلنا.. عندما جلستُ؛ كنتُ أتأمل مَن حولي للتأكد من عدم وجود أيّ شخصٍ أعرفه، فأنا لا أريدُ أغبياء متلصصين الآن.

قالت وهي تبتسم:

- ما الجديد؟!

قلت:

- لا شيء.. الأيام ذاتها تركض. أستغرب عندما كان البشر يعتقدون أن الأرض مسطحة! حياتنا كلّها دائرية، حتى مشاعرنا.. صمتُّ قليلاً ثم أردفت: دائرية..

نظرت بزاويةِ عينيها إلى مكانٍ آخر، ثم عادت لتقول لي:

- وكيف حال أسرتك؟!

- بخير.. لم أتوقع أن تسألي عنهم، طبعاً عندما تقصدين أسرتي فهم والدتي ووالدي، وحتى إذا كنت متزوجاً فلن أفوت فرصةَ الخروج معك.. لكن لماذا أنتِ باردة اليوم؟!

ضحكت ضحكةً خفيفة وقالت:

- لا شيء يا عزيزي.. أنت فقط متوهجٌ اليوم ولستَ كالبارحة.. هل تجدني أجمل حقاً من البارحة؟! لن أكذب؛ فقد وضعت بعض المكياج على وجهي.
- هل أجيبكِ ولن تفهميني بشكل خاطئ؟!
- أجل.. مستحيل أن أفهمك بشكلٍ خاطئ، توقفتُ عن هذه العادة.
- في الحقيقةِ؛ عندما أراكِ الآن أندم أنني لم أنغمس في ملامحكِ البارحةِ بالرغمِ من أنني رأيتكِ كثيراً جداً، لكن الآن يساورني ذلك الشعور؛ آه! لو يعود الوقت وأراها.

ابتسمت وهي تقول:

- وأنت جميلٌ وأنيق، أجمل من البارحة بكثير.
- أيتها المبالغة العملاقة...

وقبل أن أكمل كلامي؛ جاء النادل ليسأل عن طلبنا، اتفقنا على بروست دجاج وشاورما وأنا من حاسبت أمام صمتها.

قالت بعد أن ذهب النادل ليجلب لنا الطلبات:

- هل ستدعني أدفع لأحب هذه "الخروجة" أكثر؟!
- هههه؛ لا تحبيها بهذه الطريقة. هذه "الخروجة" كما تقولين على حسابي.

****

- سامر يا سامر (على القارئ ألّا ينسى أن كلّ ذلك كان يحكيه توفيق لسامر) لقد تحدثنا كثيراً.. بدأتُ أنا بالحديث، أخرجت سيجارةً من علبتي وأشعلتها وبدأت بالتدخين، لا أعتقد أنني أصدرت ذلك الصوت المزعج المعروف عند التدخين، أنت تعرفه يا سامر؛ "شِشِشِشِشِشِشِ" عندما أسحبُ الدخان من رئتي، هكذا أشعرُ أن الدخان تغلغل داخل جسدي ويقوم بعمله الذي وُجِدَ من أجله.. يقول نزار؛ أو كما سمعتُ أنه قال: "القهوة هي عجوزٌ معمّرة، لها أحفادٌ بررة، يقبّلونها كلّ صباحٍ ومساء، وأنا أكثرهم براً بها!".
- لكن ماذا عن السيجارة؟! أهي عاهرةٌ مسنةٌ يبارك الأحفاد على مؤخرتها؟ أم عاهرةٌ شريفةٌ لم تترك عملها؟!
- السيجارة قطعة سقطت من أجسادنا.. هل تعلم أنني قلت ذلك لرغد عندما حاولت أن تنصحني لأنني مدمن سيجارة؟! قلت لها أيضاً: "أنا متأكدٌ أنكِ تودّين شُربَ واحدة؛ لكنك هُنا لا تستطيعين" رمقتني قليلاً ولم تجب، لكنني أسرعتُ بالضحكِ لألطّفَ الجو..

"كم الساعة الآن؟!".. قالت، فأجبتُها: "لماذا تذكرتِها الآن؟! هل شعرتِ بالملل؟ لكنّ الطعام لم يأتِ بعد.. ماذا حدث؟!"

أجابت مسرعةً وهي تلمس إصبع يدي الصغيرة كطفلةٍ ودون مبرر: "أبداً والله يا عزيزي، فقط كان سؤالاً عابراً لا أودّ معرفة جوابه، ذلك لأننا فقط

لم نجد شيئاً نتحدث فيه". دائماً لمساتها منذ البارحة تشعر جسمي بالفرح المذهل، لا أتذكر أنني تمنيت أمنيةً كهذه من قبل.. من الصعب أن يتمنى الشخصُ أمراً لا يفكرُ به، أنا لا أقول إنني لا أفكر بفتاة، لكن هذه اللمسات والجمال والانفتاح؛ أعتقد أن أيّ شخصٍ في حالتي يودّ أن يكون مكاني ويغتسل من شعوري الآن.

"هل تقرئين الروايات؟!".. لا أعلم لماذا تبادر إلى ذهني حبيبُ فتاةِ الهاتف، هل لأنه نفس السؤال الذي سألها إياه؟! تُرى ماذا كان جواب الفتاة؟ لا أتذكر.. لم أتذكر في تلك اللحظة إذ كنتُ منتبهاً لأسمعَ جوابها. أجابت وهي ترفع أكمام عباءتها إلى منتصف ذراعها: "رواية أو روايتين لأجاثا كريستي؛ وتُدعى (ذاكرة الأفيال)". قلت مبتسماً: "أجل قرأتُها، هي التي كانت تتحدث عن فتاةٍ مقبلةٍ على الزواج، ولكن خطيبها سمع أن والدة الفتاة قتلت زوجها بالسمّ، مما جعله يخاف؛ هكذا يفعل الإنجليز، لديهم مخاوف وشكوك وترتيب غير مبرر وقد لاحظت الفتاة خوف خطيبها؛ فلدى الفتاة حدسٌ أن والدتها لم تفعل ذلك.. كان ذلك قبل عشرين عاماً.. ولكي تُطَمئِنَ خطيبها ذهبت لتبحث عن محققين كي يعيدوا فتح القضية، لكن القضية كانت قبل عشرين عاماً وقد انتهى كل شيءٍ متعلقٍ بها وأُقفلت، لذا لم يستطع أحدٌ مساعدتها إلى أن نصحها

أحدهم بالمحقق الأشهر في العالم **هيروكل بوارو**، وهنا تبدأ الحكاية. أليس كذلك؟! ما زلت أتذكرها رغم أنني قرأتها منذ زمن".

قالت مبتسمةً:

"امم نعم، لقد نسيتها لكن أعتقد أن هذه بدايتها.. اسمع؛ لا تخبرني نهايتها فقد أقرأها مجدداً.. أم يجبُ أن أقرأ شيئاً آخر؟! أشعر بحالةِ مللٍ عند بداية أي كتاب، أشعر أنني سأقبل على مجازفة قبل فتح الكتاب.. هل تحب طريقة السرد القديمة؟!"

قلتُ:

تقصدين الطويلة؟! كما قال د. أحمد توفيق، وهو يشير إلى ذلك: "كالطريقة الإنجليزية القديمة أخطو عشر خطوات وأكتب عشر صفحات عما رأيته."

قالت مقاطعة:

"أنا أكره هذه الطريقة المملة الصعبة، لا أحب القراءة بسببها".

قلتُ وأنا أنظر إلى عينيها:

"لكن أجاثا لها ذات الأسلوب".

"امم؛ هي جبارة، وأيضا لم أقرأ لها كثيراً ولا أتذكر سوى رواية".

قالت ذلك بينما وصل الطعام.. سنختصر وقت الطعام حيث لم نتحدث في وقته؛ لم أرغب أن أبدو فظاً يتحدث ويتساقط الرذاذ من فمه، كانت

تأكل على سجيّتها وأنا أبتسم لرؤيتها، أخذت لقمةً من طعامها وأعطتني إياها في فمي؛ شعرتُ بأناملها تلامس شفتي وهي تبتسم كقطة.. أعضاء من نحب كالمخدرات، تصيبنا بالرعاش والتهدج عند ملامستها.. شكرتها وابتسمت وتظاهرتُ وكأنني لم أشعر بشيء، الوضع طبيعي جداً! أخذ النادل بقايا الطعام وأحضر لنا كوبين من الشاي؛ وهو الكوب الثاني لي.. أشعلتُ سيجارتي وقلت متلذذاً:

"السيجارة لا تأخذ كل اللذة إلا بجانبِ فتاةٍ تدعوها عزيزتي، أو بعد الطعام مع الشاي.. والآن أنا أفعل الاثنين؛ السماء عندما تريد!

رشفت رغد من كوبِها وقالت لي هامسةً: "من تحت الطاولة!"

"ماذا؟ ماذا؟! ماذا تعنينَ بـ "من تحت الطاولة؟" أنا لا أفعلُ أيّ شيء، اعذريني لو ارتطمت قدمانا، أقسم لكِ أنه دون قصد".

"يا أحمق؛ مرر السيجارة من تحت الطاولة".

مررتها وأنا انظر حولي دون جدال، أخذت رشفتين أسفل الطاولة وصعدت، لم تكن من النوع الذي يخشى أن يراها الناس تدخن، لكنّها تفضّل أن يكون ذلك في سيارة أو في منزل؛ وليس في مطعمٍ وعلى طاولة. ارتشفت الرشفة الثانية من كوبها وقالت: "أنا في مصيبة، أود مساعدتك!"

لا أعلم لماذا لعنتُ حظي البائس حينها، كنتُ أعلم أننا مقبلون على مصيبةٍ حقيقيةٍ؛ فشخصٌ مثلي لا يمكنه أن يعيش في الجنةِ بشكلٍ متواصل، هل سمعت عن شخصٍ – يا سامر – يشعر بالحكة إذا عاش طويلاً في الجنة؟! "احم". اعتدلت في جلستي وقلت: "ماذا هناك يا عزيزتي؟ أنا أسمعك". لماذا لا تتحدث يا سامر؟! لماذا لا تستفسر؟! هل تخجل؟ أنا أثرثر منذ ساعة، هل حكايتي مُشوِّقَة؟! وكأني أقص لك قصة عمري! تخيل أن هذا حدث منذ يومين فقط.. هل قرأت رواية **دوستوفيسكي**؟

- ماذا كان اسمها؟!
- أعتقد **الليالي البيضاء**، كانت تدور أحداثها في "بطرسبرج" حيث يطول النهار ويصبح الليل ضيفاً خفيف القدوم، تلك الفتاة التي قابلها، تلك المجروحة، والتي غرست جرحه ورحلت، رحلت مع من تحب.. هل قرأتها؟! لا تجِب؛ فأنا أعيشُ تلك الليالي البيضاء.. هل تود أن تعلم ما هي المشكلة؟ إذاً لماذا لا تسأل؟! لا تتقمص دور شخصية صديق البطل في رواية **الخزرجي** لمروان الغفوري الصامتة، أنا لست مريضاً نفسياً، ولست عجوزاً لا يحب سوى شرب القهوة.. أعرفُ أنني لا أدعك تتحدث وأنني متحمسٌ بالحديث، لذلك اعذرني، أنا أعتذر.. أجل يكفي أن تشير بوجهك لأعرف منك ما تريد.. ستشتتني لو تحدثت، ولن أدرك من أين أبدأ وكيف أشرح.. هل تتذكر عبد السلام؟! أجل أتحدث عن رواية

الخزرجي؛ أعتقد أنه كان عبد السلام، كان مخبول القريةِ وكان يودّ أن يحكي الناس عنه.. هل كان يودّ الخزرجي ذلك؟! لا أتذكر، لكنه كان ينعم برغد الدنيا. هل خان الكاتب عبد السلام؟! ماذا لو كانت الرواية المعتوه عبد السلام عوضاً عن الخزرجي؟! الخزرجي مازال يضحك لأننا نكتب عنه، لأن الكاتب جعل له الحصة الأكبر، لأن فتاة المحطة عرفته والطقس البارد شاهدٌ على ذلك. آسفٌ لأنني خرجت عن سياق الأحداث؛ لنعد.. ما قالته الفتاة كان محزناً جداً وكان يجب أن آتي إليك لتسمعني؛ بل لتساعدني، هل تود معرفة ما قالته لي؟! لا تنسَ؛ حركة وجهك كفيلةٌ بأن أفهمك.

والآن فلنعُد إلى ما قالته، قالت وقد سقط من خمارها خصلتان من شعرها الأسود، وبدأ لونها بالامتقاع:

"أنا هاربة، هاربةٌ من أهلي يا توفيق، من سطوة عمي المخيفة، عمي الذي يودّ أن.... أن آآآآه ماذا عليَّ أن أقول؟! إنّ الحكاية ليطول شرحها ولن تُسبر أغوارها هنا بهذا الوقت الضيق للشرح.. لا أعلم السبب الحقيقي لقتلي، هل هو الذي أفضوا إليه حقاً؟ لكن ماذا يريدون مني؟! هل تعلم – يا توفيق – أنهم كانوا يودّون قتلي حقاً عندما كنت عندهم؟! لقد هربت، وهربتُ طويلاً ومنذُ زمنٍ طويلٍ، لكنهم الآن يعودون، لا أعلم أيّ شيطانٍ يركبُ أدمغتهم، أنا هنا منذ أسبوعين، وهذه السيارة اشتريتها فورَ

وصولي من المالِ الذي حصلتُ عليهِ بعدَ بيعِ المنزل، أنا أعلم أن الأمور مبهمةٌ بالنسبةِ لك، وصدقني لقد عشتُ في لغزٍ طويلٍ داخل حياتي لفترةٍ لا بأس بها من الزمن، أنا أزعجك وأنا أعرف ذلك، لكني أكره أن يأتوا لقتلي دون أن أحرك ساكنةً وأملأ الدنيا صراخاً وينالوا عقابهم".

كانت ترتجف وهي تتحدث، بينما لا أعلم ماذا كنت أفعل... لكني كنت أحتقن من الداخل وأنا أراقب خوفها، سألتها أسئلةً كثيرةً لا أتذكرها، لكنها لم تفِد بشيء فقد كانت تسهب نحو البعيد.. ثم قالت:

"آسفةٌ لأنني أحدثك بهذا الشأن، أعرف أنه لا يمكنك أن تفعل شيئاً لكنني أحببتُ أن أوضحَ لكَ بعضَ الأمور".

حدثتُها عنك يا سامر، أخبرتها أنك شخصٌ مثقفٌ وقد تجدُ الحلَّ لمعضلتها، شعرت بأنك دفاعي الوحيد؛ الشخص الوحيد الذي قد يعيد الأمل لها، ولكي أقحمك بشكلٍ قويٍّ أخبرتها أن والدك يعمل في الأمن وأن أحد أخوالِك في المطار، وأنك قد تساعدها إذ أنها أوضَحَت أنهم مسافرون خارج البلاد، لمعت عيناها ورحبت بك كثيراً، قالت على الطريقة المصرية: "هيييه! يبقى لازم أشوفه".

وفضلت أن نلتقي غداً لتروي حكايتها لنا الاثنين كي لا تضطر لشرح الأمر مرتين، وأنا أيضا رأيتُ ذلك فقلتُ حسناً في الغد، أجل غداً؛ نحنُ الثلاثة.. طبعاً إذا وافقت أنت.. لا ترفض.. تعال فقط، أَظهِر أنّك مهتم،

ثم سأقول لاحقاً أنك عجزت عن فعلِ شيء.. لا تقلق، لن تتشوه صورتك، أو ربما يحدث ذلك، ولكنك لا تعرفها وأرجوك لا تهتم لذلك.. لا داعي لأن أشرح لك أن السهرة انتهت بعد مضيّ دقائق قليلة، كانت تود أن تدخّن بعد أن أنهت كلامها ولكني منعتها؛ أخبرتها ألّا تتسرع، وأنَّ كلّ شيءٍ سيكونُ بخيرٍ، وأنني لن أسمحَ لشيءٍ أن يصيبَها، وأنني سأفديها بعينيّ الاثنتين؛ وأنا صادقٌ في ذلك. لا تقل يا سامر أنني أحبها حتى لو اندفعتُ معك في الحديثِ عندَ بعض المواضع، لكنني لم أجرب هذا الشعور قطّ، لذلك تمتلئ روحي بفيضٍ من البحار وتقلباته..

أمسكت رغد كلتا يدي وشعرتُ بها تشكرني من أعماقها وهي تردد:

"يا لك من عزيزٍ وغالٍ!" ثمَّ ودعتُها إلى باب سيارتِها ومضيت.

****

الليلة الثالثة

الفصل الأول

قال لي سامر بعد أن همهم وصمت بعض الوقتِ للتفكير:

- هكذا إذاً! أنت تعرف أنه ليس من السهل أن يجدوها، خصوصاً بعد أن باعت المنزل وهربت؛ لن يقتفوا أثرها وهذا مناسبٌ لها، لكنها خائفةٌ كحالِ قطّة..
- أجل.. و؟
- ألم تخبركَ أين والدتها؟!

قال سامر ذلك وهو يشعل عودَ ثقاب.. وبقدر ما كان سامر مجردَ عذرٍ لأُريَها كم أهتمُّ بِها، بقدر ما كان مهيباً، شامخاً، يتساقط منه الوقار، ودائماً ما أثق به جداً!

قلت:

- والدتها هناك.. يبدو أنها من دعتها للهرب وفوّضتها لبيع المنزل كما أخبرتني؛ لا مشاكل معها.. وهي ستمثّل أنها تودُّ عودتها؛ في الحقيقةِ هي تودُّ ذلك، لذا سيبدو الأمر حقيقياً.

أردف سامر وقد ظهرت على ثغره ابتسامةٌ ماكرة:

- لا تودُّ أن تفقِدَها.. لا تودّ أن ينقطعَ أيُّ حبلٍ قد يجعلكم معاً وكأنّها سمكةٌ بلوريةٌ تتقافز من البعيد فتغريكَ وتعبثُ في منامِك وتحملق في عينيها، وأنت أخيراً وجدتَ سنارةً جيّدة.

- لا يعجبني وصفك بـ "السنارة" يا سامر!

- لا بأس.. أتفهّم شعورك، وأنا أيضا أودّ أن أقابلها فقد سمعتُ عنها منك.

قلتُ مسرِعاً:

- أجل؛ أثق بأنك ستحبها!

أردفتُ وأنا أحاولُ أن أخرجَ كلَّ ما في قلبي:

- هي ضعيفة يا سامر، صحيحٌ أنها أكبرُ منّا في العمر، فهي تبلغ ٣٢ عاماً حسبما أتذكر أنها أخبرتني دون خجل، وكنت قد نسيت القاعدة التي تنص على عدم سؤال الفتاة عن عمرها، بينما نحن نبلغ من العمر ٢٨عاماً، لكن أنت تعرف أنّ العمر لا يعني شيئاً، أنت تستطيعُ أن تهدِئَها، أن تخفف عنها؛ فعقلك أكبر من عقلها.

- هل تعني أن النساء أقلّ عقلاً من الرجال؟!

قالها سامر وهو يعقد يديه.. أجبتُ مسرعاً:

- هل رأيت عقليتك؟! أنا لا أقصد ذلك وأنت تعرفني، أنا فقط أتحدثُ عن شخصين، حالتين لوحدهما؛ أراك أفضل.

قال بعد أن ضحك:

- لكنك تراها أعمق!

صمتُّ عن هذا التلميحِ بسعادةٍ وودتُ لو تسمعُ رغد تلكَ الشهادة عن كيفيةِ رؤيتي لها، ربما كان الارتباك قد ظهر عليّ في حينها.

ودّعتُ صديقي سامر على أملِ لقاءِ ثلاثتِنا في الغد..

سأختصر كل الأحداث..

في اليوم التالي؛ اتصلتُ بسامر لكي يذهب للمطعم ونلتقي هناك في انتظار رغد لأنني تعودتُ – من المرّةِ الوحيدةِ التي التقيتُ بها فيها – أنها تتأخر.. عندما وصلتُ كانا جالسين وكانت رغد مبتسمة، عرفتُ فيما بعد أنّه وصل ورآها مثلما وصفتُها له، توقّف أمامها وسألها عن كونِها رغد؛ وعندما أجابت بالإيجاب عرّف عن نفسه وجلس.. لم أتوقع ذلك، لكنّي لم أعِره اهتماماً.

كانت رغد تجلسُ مواجهةً لي بينما ظهرُ سامر لي، لهذا نادتني هي.. صافحني سامر وصافحتني وهكذا بدأت جلستنا.

لا أعلم من يستمع إليّ الآن وأنا أروي حكايتي، سامر لم يعد منتبهاً، وأنا لم أعد أتحدث.. بدأتُ أدركُ كلَّ شيءٍ ببطءٍ مقززٍ بينَ حكايةٍ وأخرى وسيجارةٍ ورفيقتها، بدأت أشعرُ وكأنني أقاطع حديثهم، لا أعلم عمّا يتحدثون؛ فقط أشاهد نظراتِ رغد الثاقبة وشفتيها المتقوستين وهي تشاهد سامر وحديثه لا تتخللها إلا ابتسامة أو "همم" من حينٍ لآخر.. سامر الرجل المهيب صاحب الكاريزما العالية والثقافة اللا محدودة؛ هل يفكر في رغد؟! ما هذه الفكرة

الحمقاء! رجلٌ مثله لن يعشق فتاةً من جلسةٍ واحدة، هل اعترفت له بحبي لها؟! لا أتذكر.. كنتُ خجلاً من ذلك، لكنه كان يعرف! ولكني كنت أنكر.. سامر كان الرجل الوحيد الذي أحبّته فتاة الثانوية الجميلة، كنا ندعوها فتاة الرواية الشتوية، فتاة الرواية لأنها كانت جميلةً والجميع متلهّفٌ لها، والشتوية لأنها كانتَ باردةً إلّا من سامر! المرة الوحيدة التي تحدثتُ فيها معها حين قالت لي: "أين صديقك سامر؟!". تمتمتُ بأنّه ليس هنا، وكان الجميع يعرف بأمرِ حبّها له.. أتذكر في مرةٍ مررتُ أنا وسامر تحت بنايةٍ ما، ولم نكن نعلم أنها تسكن في ذلك الشارع؛ وحينما رآنا أحد أصدقائنا في الثانوية صرخ باسمي واسم سامر فشاهدناها تُخرج رأسها من الشبّاك مسرعة.. تفاجأ سامر برؤيتها، وبسرعةٍ حاولتُ أن أصرفَ الانتباه حتى لا يركز أحدٌ ونقع في مشكلة.. تلك الفتاة كانت أجمل من رغد، وكنا شباباً جداً وفي مرحلةٍ رائعةٍ للطيش.. وعندما أمسَكَتهُ في اليوم الثاني وسألَتهُ عن سبب وجوده في حيّها أجابها بكلِّ برود، لكنّ هذا لم يمنعها عن قول: "ولكنك أسعدتني جداً." تعمدت استخدام "أسعدتني" حتى لا تبدو وكأنها مجاملة، بل لكي تبدو وكأنها شخصية جداً لكي يفهم ويدرك مدى عطشها إليه، أتذكر أن خديها كانا شديدي الحمرة من فرطِ الخجل.. كان يستطيع أن يأخذ بيدها ويبتسم على الأقل، لكنه لم يفعل.. مضى في طريقه كثلاجةٍ للموتى، حتى عندما اعترفت له بحبها وهي دامِعةٌ وخجلةٌ وتعرف جوابه، لم يخِب ظنّها، لا أعلم ماذا قال حينها لكنه ذهب..

تلك الفتاة التي جنَّنَت العقول وأخذت الكلّ خلفها من شارعٍ لآخر؛ رفضها سامر مرةً بعد مرةٍ كغيرها من الحسناوات.. تُراهُ – بعد كلِّ هذا – سيهتم برغد الآن؟! لا أعلم لماذا أنقل لكم وساوسي القهرية هذه، فسامر ورغد يتحدثان وأنا بينهما، ولو ركزت قليلاً فسأتحدث!

كانت رغد جذابةً جداً؛ عادت لتبتسم لي، لا أعلم كيف انسكبت وساوسي فجأة! هي فتاةٌ رائعةٌ ونادرة، أعطتني كلّ شيءٍ جيدٍ ينعشُ قلبي وكأننا دخلنا نغتسلُ بقلبينا سوياً..

كانت رغد تشرح كلَّ شيءٍ لي ولسامر عندما قلتُ:

- أين وصلتم؟!

التفتت لي رغد وهي تقول باستغراب:

- ألم تكن معنا؟!

- عذراً.. شردت قليلاً..

أجبتُ هكذا بينما كان سامر يرسم ابتسامته لكلينا..

- لا بأس.. كنّا نتحدث عن السياسة.

قالتها رغد، ثم التفتت إلى سامر وهي تقول:

- همم.. مبعوث الأمم المتحدة إذاً.

إذاً هم لا يتحدثون في صلب موضوعها.. لا أستغرب ذلك من سامر، فهو رجل سياسةٍ محنكٍ وذو نظرةٍ ثاقبة جداً، عندما تجلس معه لابد أن تستفيد.

لم أسمع جوابه إذ بدأتِ الجلسةُ تتشوشُ عليّ مرةً أخرى، وبدأتُ أفكرُ بيني وبين نفسي ككل حالاتِ الاكتئاب والحزنِ التي تأخذ بيدي، ككلِّ مرةٍ في أيِّ مكانٍ فجأةً ودون سابقِ إنذار تظهر لي كظهور مفاجأةٍ لطفلٍ انجليزيٍّ من قبل أبويه.

كان سامر سياسياً محنكاً وعنده بُعد نظرٍ في تحليل الكثير من الأمور والأحداث السياسية المختلفة، وعندما كنتُ أستمع له كنتُ أدرك كم أنا غبيٌّ في تحليلي لمجريات الأمور في اليمن، خصوصاً تلك المتعلقة بالحرب الداخلية الأخيرة في شمال اليمن، إذ حصلَ ما لم يكن يتوقعه أغلبُنا؛ عدا سامر!

لابد وأن أحدهما جرّ الآخر للسياسة فاستراح سامر هناك.. لكن ماذا عن رغد؟! لم أكن أعلم أنها تحب الحديث عن السياسة!

هل تدركون أنني وحدي هنا؟! بدأت أشعر بذلك حقاً.. يجب أن أتكلم، أنا دائماً أبقى صامتاً وأريد من كل العالم أن يتحدث معي، أريد أن أصبح مشهوراً، مغنياً، رساماً، مثقفاً، أن يحتذي الجميع بآرائي، أن يستوعبوا أنني رجل هادئ ورزين، أنني شيءٌ لن يجدوه في الباقين، وأنني أفهمُ كلّ شيء، لكنني أبقى صامتاً كقبرٍ جعلته الرياح أصلعاً!

غالباً الصامتون يتجرعون لوم أصدقائهم، ولوم أنفسهم، ولوم الرسائل التي تأتيهم من البعيد، دائماً ما تثقل قلوبهم بالهموم ولا أحد يمسح على قلوبهم لأنهم يظلون صامتين فلا يكتشف حزنهم أحد.. هم يدركون ذلك، ويدركون

أنهم السبب، ويدركون أن كل ما يفكرون فيه غير صحيح، لكن – لسببٍ ما – يستمرون على صمتهم المُدقِع.. ربما يكون الصمتُ وسيلةً للهرب من أخطائنا، والحزنُ متنفساً للغضب.. البارحة وأنا أتصفح صفحتي في الفيس بوك قرأت عن انتحارِ شاعرٍ تونسيّ، لم أكن أعرفه، لكني لا أعلم لماذا ظللتُ أفكر فيه كثيراً، فكرة الانتحار مخيفة، أن تقرر فجأةً نهاية كلّ شيء، دائماً ما أرى أن الانتحار مخيف وأن الذين يقومون به أناسٌ لا يشبهوننا.. قرأت من قبل أن المنتحر يمسُّه شيءٌ من الجنون وإلا فلن يفعل ذلك، وهذا أقرب شيء منطقي علق في رأسي وإن كان لا يعدّ صحيحاً بشكلٍ كامل.

كتب التونسي الراحل وصيته، قام بخطّ عدةِ كلماتٍ جميلة ونصائح عن تسامح النفس وحبها، شيءٌ من السخريةِ أنَّ الذي كتبَ للناسِ أن يتصالحوا مع أنفسهم ويكونوا أفضل قرر معاقبة نفسه! لا أعلم من يكون حقاً، لكن إلى أيّ مدى كان مكتئباً؟! بماذا كان يفكر؟! هل عاش حياةً منبوذةً حزينةً مثلي؟! كتبت لي ذات مرةٍ أحدُ الصديقاتِ الزرقاوات على الفيس بوك:

- هل شعرت بأنك تسقط في عمقِ صمتِك بحيث لا يمكنك البكاء ولا الكتابة ولا التحدث مع الآخرين؟! فقط كل ما تريده هو البقاء وحدك.

أجبتها:

- يمكنني فهمك.. أتمنى أن تربحي حربك داخلك، فأنتِ فتاة شجاعة!

ثم أردفتُ برسالةٍ أخرى تحثّها على التحدث معي، لم تكن الرسالة مجرد مجاملةٍ مني كما يظهر، وبذكائِها فهمت ذلك، لكني احترمت رغبتها عندما قالت إنها تودُّ البقاءَ وحدها وقلت لها:

- لا يمكنني سؤالك طالما لا تودين الحديث، لكنني هنا أسمعك جيداً إذا أردتِ ذلك.. أعرف أن هذه الدعوة متكررة لكنني صادق.

قالت:

- من شخصٍ صادقٍ هي أولُ دعوة.. (ابتسامة).

كانت هذه الإجابة بمثابةِ قولها "وصلني شعورك"، ولو قالتها بصحيح العبارةِ لبدت عاديةً جداً، لكنها فتاةٌ ذكيةٌ عرفت كيف تحشرها فيّ.. ثم برّرت وقالت:

- لا داعي لأزعجك بتفاهاتي، سأكون بخير؛ أعدك.. (قلب أحمر).

أزعجني ذلك. كتبتُ لها رسالةً أقولُ فيها ذلك، قلت:

- يمكنكِ أن لا تتحدثي دون قول "لا داعي لأزعجك بتفاهاتي"؛ هكذا سيكون الأمر أفضل! أثق بكِ وستكونين بخير.. (ابتسامة).

كتبت هذه المحادثة لأصل إلى هذين النصّين التاليين؛ عندما قالت بعد رسالتي الأخيرة:

- ما أقصده هو أن ما يدور ويحصل حولي لا يقارن بما يحصل حولك! أشعر أنني أشبه الطفلة الشكّاءة الباكية التي لم يعد يعجبها بستان الورود الذي

في بيتها وتريد الوردة الموضوعة في مزهريةٍ عتيقةٍ على طاولةٍ بجانبِ سريرِ ابنةِ الجيران.. أخجلُ منكَ ومن أمثالِكَ حينَ أشكو.

هنا الخطأ الذي يقع فيه الأغلبية، الاكتئاب قد يأتي في أبسطِ الأمور، وقد لا يزورك في أحلكِ المواقف، فعندما كنتُ في الحربِ تحتَ القصفِ المُخيف؛ لم أكن مكتئباً كما اكتأبتُ عندما ابتسمت أحد الفتيات اللاتي أُعجبتُ بهن بكلِّ سعادةٍ لصديقي الوسيم جداً، لم أشعر بذلك الحزن الذي نهش عظامي في ليلتها وجعلني أنام منهار الأعصابِ في أيامِ قبل الحرب. أيام الحرب محزنة، لكنها ليست خاصةً بكَ وحدك، وهناك فرقٌ بين الحزنِ والاكتئاب، الحزن هو أن تحزن صديقك الذي كان لا يفارقك، والاكتئاب هو أن تفقد صديقك الذي لا يعرفك.. الاكتئاب قد يزور طفلاً فشل في الإعدادية فقرر الانتحار، أو مراهقةً وجدت حبيبها يطلب منها أن تبتعد عن طريقه ويصفها بالمثيرةِ للشفقة، وربما طفلةً لم تأخذها والدتها معها إلى السوق فقررت القفز من سطح منزلها؛ تنظر إلى الأرض وتخطوا أول خطوةٍ وتتردد من فعل ذلك أو عدمه!

لا تستهينوا بالأشياء الصغيرة، فلكلِ انتحارٍ حديثٌ وهرجٌ ومرجٌ لا يقع إلا بوقوعِ الحادثة. لا تكونوا مغفلين وتنتظروا وقت مصيبتكم..

أرسلت لصديقتي الزرقاء، وكانت آخر رسالةٍ لذلك اليوم:

- ليس هناك مقياسٌ أبداً في الأحزان؛ صدقيني، ففي الحربِ كنُّا في بعضِ الأوقات نضحك ونغني، والآن قد يأتي موقفٌ صغيرٌ جداً يسقطني أكثر من الحرب. ليس هناك مقياسٌ في الأمور التي تسكن داخلنا؛ مشاعرنا.

كانت تلكَ صديقةً رائعةً وجبَ عليَّ أن أتحدثَ عنها..

****

الفصل الثاني

رغد تدخل خصلة شعرٍ خرجت من خمارها إلى الداخل، لم أعلم أن رغد تهتم بذلك لكني رجحتها حركةً عفوية منها.. قالت:

- الجلوس معك يا سامر والحوار شيق، الفضل لمعرفتي لك يعود لتوفيق، أنتَ كما وصفك حقاً، توفيق يعتز بك ويحبك.

نظر لي سامر مبتسماً، قال وهو يهرش خده:

- توفيق شخصٌ رائعٌ أيضاً، وإنني لأشكره جداً على تعريفي بشخصيةٍ جميلةٍ مثلك.

قلت:

- طالما أصبحتما تعرفان بعضكما وأبعدتماني عن حواركما سأكرهكما الاثنين.

- لا تقل ذلك يا رجل؛ أنت فقط لا تشاركنا الحديث..

قالها سامر.. بينما أجابت رغد ضاحكةً:

- لا تستطيع أن تكرهنا أنت سبب كل شيء.

ضحكتُ وأنا أقول:

- هونا عليكما؛ أنا أمزح فقط، ثمَّ هل تحدثتما في صلب موضوع النقاش عنك يا رغد؟! عن مشكلتك؟!

حركت كرسيها قليلاً واستندت إلى الخلف وهي تقول:

- هل رأيتَ أنك لست معنا؟! أنت حتى لا تسمعنا.. نحن لم نتحدث عنها، انتظر ولا تستعجل ما زال الوقت طويلاً ويجب أن نتعرف حتى نتحدث.. التحدث مع سامر رائع لهذا انجرفنا من مكان إلى آخر.

ابتسم سامر بامتنانٍ عفويّ بينما أخرجتُ سيجارتي، لا أعلم هل هي الأولى أم الثانية، قلت:

- أنا لست معتاداً على شرب السجائر في مكانٍ بين اثنين؛ لكنكما معتادان يا أعزاءي.

صمتا موافقة.. وقال سامر:

- لا تخلطي – يا رغد – بين المتاجرة بالدين والإسفاف فيه، صحيحٌ أن هناك الكثير من تجّار الدين، لكنَّ الذين يوعوننا في أيامنا هذه هم نفسهم الذين يحطون من هذا الدين، تجدين ممثلاً قضى حياته في تقبيل النساء والتنقل من فراشٍ إلى آخر يعرضون معه حلقةً كاملةً يتحدثُ فيها عن السياسة، ماذا سأستفيد من مثل هؤلاء الحثالة؟!

كانت رغد تستمع بإنصاتٍ، بينما أردف قائلاً:

- حسناً.. هناك أيضاً من يتحدث منهم عن الدين والوطنية.. هذا مغني تافه، قضى حياته كلّها في إرقاص الناس، ومن يدفع له المال يغنّي له.. أنا لا أقول إنهم سيئون، لكن ينبغي أن يقتصروا على مهنتهم فحسب؛ فهم ضرورةٌ للمجتمع في إطارِ الدورِ الذي يقومون به.. أنا أيضا سأستاء أشد

الاستياء لو وجدت طبيباً يتحدث عن عملِ المهندس؛ أعتقد أن الممثلين يشعرون بالنقص لذا يتدخلون في كلِّ شيءٍ لا يصلح لهم بالرغم من أنهم رائعون في مجالهم، لكم أحترم منهم مَن يحافظ على مهنته دون أن يظهر نفسه حكيم الأمة.

قلتُ مُقاطعاً كلامه:

- معك حق يا سامر، عندما مات المغني الكبير (فُلان) وجدت مقالةً تصفه بأشياء كبيرة جداً جداً لدرجة أنني استغربت؛ ماذا ستقولون عن النبي لو مات في زمانكم وأنتم تمدحون مغنيّاً بهذا الشكل؟!

ضحك سامر وهو يقول:

- نبي ماذا؟! ماذا أبقوا للأطباء والمهندسين والمعلمين أساس المجتمع والأمة؟ بهؤلاء الأمة ترقى؛ بأصواتهم، بأفعالهم، وليس عندما نجعل قدوتنا وقدوة أطفالنا والمنزهين الممثلين والمغنين.. لهذا نحن نسقط بهذا المعدل الفظيع.

تحدثت رغد وهي تضع كوعها على الطاولة:

- يقول أحمد زويل: الغرب ليسوا عباقرة ونحن أغبياء.. هم فقط يدعمون الفاشل حتى ينجح، ونحن نحارب الناجح حتى يفشل"، طبعاً قرأت هذه الجملة في مكانٍ ما وأحببت أن أنقلها لك يا سامر لأنني فكرت بها

كثيراً، لماذا لا يوجد لدينا أشخاصٌ أكفاء يعملون بضميرٍ كضمير العامل الغربي من وزير أو موظف؟!

ضحك سامر مرةً أخرى، وقال وهو يبتسم بلطف:

- الجملة التي سمعتِها يا رغد رائعة، لكني أفترض عكسها في جزء الذي يخصنا؛ فنحن من نساعد الفاشل حتى ينجح.. لقد كنت أتحدث كثيراً عن ذلك، ألم تكوني تسمعينني قبلا؟! لماذا لا يأتي الشرفاء إلى مناصبنا؟! لأننا نساعد الفاشل حتى ينجح، لأننا نحوّل **الرويبضة** إلى قدوةٍ لنا، نحول أشخاصاً تافهين إلى رموزٍ لنا، نحن نعلم أنهم تافهون وهم يعلمون أننا نعلم، لكنهم يستمرون؛ يريدون أن ينقشوا في أذهاننا أنهم يستحقون، حثالةٌ – يا رغد – يستحقون.. بالنسبة لي؛ كلُّ شخصٍ يعدّ نفسه حكيم الأمة دون أي عمل، فقط لأنه مجرد وجه يظهر على التلفاز بينما هو مجرد حثالة، من ينحرف عن مجاله إلى مجالٍ آخر فقط ليقول أنا أكثر منكم حكمةً هو مجرد حثالة.. هل تعلمين أن هناك شبابٌ لم يبلغوا ٢٥ من العمر يُأَلِّفون كُتُباً يتحدثون فيها عن خبرتهم في الحياة؟! هههه.. كل ذلك فقط لأنهم يكتبون جيداً، أتذكر **محمد حسنين هيكل** رغم اختلافي الشديد في توجهاته، لكنه ذو كفاءةٍ عالية، وبرغم كل ما عاصره في حياته إلا أنه لم يتحدث عن خبراته إلا عندما بلغ الثمانين من العمر.

قالت رغد معقبة:

- وعندما تخبر أحدهم بذلك يذكّروك بأحد قادة الإسلام الصغار، هم لا يفرّقون بين الأشياء التي توكل إليكَ لتفعلها لأنك كُفء وبين ترشيحك لنفسك.. من ثمَّ يجب على الشخص أن يفهم هل هو في مقامٍ عالٍ ليحاضرَ الناس عن شيء ما أم لا..

ثم أتبعت كلامها قائلة:

- سامر هل أحببتَ من قبل؟!

فجأةً قالتها رغد دون مقدمات وكأنها ملعقة سكرٍ في الشاي! التوى عنقي كثيراً وهفت قلبي إثر سماعي لهذا السؤال. لم أتوقع هذا السؤال، ولم أتوقع من فتاةٍ تعرف رجلاً لعدةِ دقائق فقط أن تسأله هذا السؤال الخصوصي جداً.. لماذا تنظر إليه هكذا؟! لماذا تبدو متوترة؟ والسؤال الأهم؛ لماذا ابتسمت بعد سماعِ إجابته؟!

قال سامر:

- لا.. ليس بعد.

عندها أنا طلبتُ النهوضَ إلى الحمام.. الأمر تزامن مع سؤالها إذ أنّ وجهي تغيّر وارتبك، لكنها لم تلاحظ ذلك وكأن الأمر عاديّ.. هذا أنقذني من سؤالٍ مزعجٍ كانت ستحرجني به، ولكنَّ صمتها أهلكني بعد خطوتين مني.. مشيتُ عنهما وتركتُ كلَّ شيء، وجدتُني أجلسُ عندَ الزاويةِ حيث لا يرمقونني ولا

أحد يعرفُ ماذا أفعل، وكأنهم كانوا سيلاحظونني! نحن الصامتون لا شيء حقيقيّ حولنا؛ كلُّ شيءٍ مزيَّف، الرجل الذي لا يحترمني لا يحترم الجميع، الفتاةُ التي لا تتحدث معنا لا تتحدث مع الجميع، المواقف السيئة التي تحدثُ لنا تحدثُ مع الجميع، وفتاة العملِ أو الجامعة أو الجارة التي فضّلت غيرنا لم نبادر حتى بالحديث معها قطّ، بينما الشخص الذي فضَّلَتهُ الفتاة أخذَ كلَّ وقتٍ لجذبِ انتباها.. كلُّ شيءٍ مزيَّف، ولكنني أجلسُ هُنا وحدي، وهُما بمفردهِما هناك، وهذه حقيقة..

لقد فهمتُ كلَّ شيءٍ شعرتُ بهِ منذ البداية، ذلك الألم بقلبي يعود، الاكتئاب يفتك بقلبي ويتحرك بين حجراته بكلِّ أريحية، قلبي يود الخروج من مكانه ووجهي الغبي أصبح أحمراً والعرقُ بهِ على وشك الانفجار.. ربما أنا شخصٌ ثقيل، بل من المؤكد أنهُ لو عدتُ الآن فسأثقل على أنفاسهم، أصبحتُ كضيفٍ غير مرغوبٍ به، ولو أخبرتهم أنني سأذهب فسيصرخون باحتجاجٍ كاذبٍ يجبرك على الجلوس، ولو جلست معهم سيتصرفون وكأنك لست منهم، إنهم يرغمونك على أن تدرك ذلك.. لا أعلم ماذا يحدث؟! قلتها كثيراً ولكني أعلم، أشعر بكلِّ شيء وأنا جالسٌ في مكاني، لا يمكنني نكران قلبي، إنني أتساءل دائماً؛ هل يحدث ذلك مع الجميع؟! أم معي وحدي؟! هل من المذهل أنني غير مميزٍ إلى هذا الحد؟! الخيار المهمش دائما؟! بيدق الشطرنج الذي تشجعه ليكون في الصفوف الأولى ثم تبادل به بأي قطعةٍ أخرى وكأن شيئاً لم يكن! عليَّ أن

أنهض، عليّ أن أتمسَّكَ بالجدار.. ماذا لو كنتُ أنا الجدار لبعض الوقت وذهبتَ أنت؟! سأقف صامتاً ولن أتحرك، أعدك! سأتقن الدور، لكن ماذا ستفعل أنت؟! أعتقدُ أنَّ دورك أصعب؛ حمل القلب وتحمّل مسئوليته خيارٌ صعب. يجبُ أن أذهب، أن أذهب إليهما.. لا تُمِت قلبي يا الله، أرني كلّ شيء.

عدتُ بخطواتٍ متثاقلةٍ فارداً وجهي كما أستطيع، استقبلتني رغد بابتسامةٍ لطيفة، بعد كلِّ شيءٍ أرى أن ابتسامتها ما زالت لطيفةً نحوي.. مرّت اللحظات الأولى من رجوعي كما توقعتها، "الجنون هو أن تفعل ذات الشيء مرةً بعد أخرى وتتوقع نتيجةً مختلفةً" (دوت هذه المقولة لآينشتاين في رأسي فأطنبت صدىً كبير).. أسئلة عادية والعودة في الحديث مع سامر والتبادل الثقافي بينهما.. ألحظُ نظراتها الشاردة نحو سامر، ابتسامتها الخفيفة التي تشبه الروح الباردة، لقد أصبحت تلعب بخصلات شعرها التي خرجت من الخمار وهي تستمع لسامر، تطويها حول إصبعها وتفلتها فتظهر على شكلٍ لولبيّ. أعتقد أنها الآن وجدت شخصاً يبهرها، شخصاً لا تصدق أنها معه هكذا.. سامر يستطيع أن يبهرك، فهو كالمعلم بينما أنا كشخصٍ عاديٍّ رفيقٍ صديقٍ، لكن لا يمكنك أن تنبهر بي.. هذه الفتاة قوية، والفتاةُ القوية تحتاج إلى معلمٍ كي تحبه، يجب أن تجد في الشخص الذي تحبه أنه أفضل منها، وأرجح عقلاً..

قلتُ وقد بدأ السخط في صوتي:

- لماذا اجتمعنا هنا اليوم؟ أليس لنتناقش بأمر رغد؟! إذاً لماذا أنتم تؤجلون ذلك؟!

- نحن نتعارف.

أجابتني رغد بينما قال سامر بوجهٍ بشوش:

- هل هناك ما يزعجك؟!

- لا.. أعني فقط أنني بدأت أشعر بالملل، تعارفتم وانتهى الأمر.

هنا أطلق أحد العسكر في الخارج طلقة نارية ألزمت السكون في المكان لبعض الوقت.. هذا يحدث كثيراً في عدن، أحياناً كثيرةً يفعلون ذلك لتجربة السلاح ما إن يستلموه من المعسكر، أو عندما تعلق رصاصةٌ في الداخل، أو عندما تحدث مشاجرة بسيطة يطلقون النار للتفريق بين المتشاجرين ثم يعودون راضين النفس، أو لإيقاف سيارةٍ لم تحترم نقطة التفتيش – التي لا تفتّش شيئاً – ومرّت سريعاً هنا تثور الثائرة ويطلق النار في الجو كتهديد أولي.

مرّت اللحظات عقب الطلقة النارية بهدوء، من ثم عادت الحياة لطبيعتها.. نظرت إليهما منتظراً ردهما، نظر لي سامر وهو يقول:

- أحقاً لم تكن تسمعنا؟!

ثبتت رغد عينيها نحو سامر للحظة ثم أشاحت النظر للناحيةِ الأخرى عني وعنه..

قلت:

- ماذا؟! ماذا؟ هل كنت شارداً إلى هذا الحد؟ ماذا عساكم تحدثتما؟! عن ماذا؟ هل كنتم في فحو مشكلتها؟!

تنحنح سامر وهو يقول:

- لا.. لا شيء أبداً، سوف تبدأ الآن قصتها..

قلتُ محتجاً:

- لكن عن ماذا كنتم تتحـ...

- لا شيء أخي توفيق..

قالتها رغد مقاطعةً، وهنا انتبهتُ لعبارة "أخي توفيق"، أجل فهمت الآن؛ لا يمكن أن أكون "عزيزي" بعد اليوم. هذا أمرٌ مضحك، أفصحت عن ذلك أخيراً، لكن لماذا تبدوا دموعي قريبةً هكذا؟! لساني لا يتحدث، وعمودي الفقري يرتجف.. أنا بيدق، بيدقٌ تمّ الاستغناء عنه فقط دون شرح أو مبررات كما نفعل على رقعة الشطرنج.. هذا الشخص أفضل منك؛ افهمها وحدك يا رجل.! رغد الجميلة نادتني "أخي"، وفي تلك اللحظة دوت أغنيةٌ فرنسية حزينة وأنا أنظر إلى وجهِ رغد المذهل ووجه سامر البارد.. قبل دقائق كان سامر مجرد غريب، والآن هو كل ما تراه عيناها!

رغد أنتِ تحبينني، أنتِ فتاةٌ صادقةٌ ومختلفة، أنا لا أستحق هذا الحب لكني أيضاً لا أستحقُّ أن أشعر بهذا الحزن، أنتِ الحقيقة الوحيدة التي لمستها بيدي

كخيطٍ رفيعٍ مرهف. أحببتُ روحك قبل وجهك، عشقت "عزيزي" قبل "أحبك" التي لم أسمعها..

سامر! هل حقاً تقبل بحبيبةِ صديقك حبيبةً لك؟! لو قلتَ "أجل" فأنت شخصٌ سيء.. لا تعشق فتاة صديقك! ربما هي تحبك، ربما أنت لا تعلم بحبنا، ربما هي تكرهني، لكن كن أنت الرجل وابتعد، لا تلمسها، لا تتحدث معها بلطف المحب، ولا تبرر لنفسك أنني مثل صديقها.. ولو قاومتك هي فابتعد عنها، قل إنك لا تريدها فقط ولا تخبرني ماذا قالت لك.. لا؛ لا تخبرني أنها قالت شيئاً لن تخبرني به.. أنتم لا تلتقون، لا شيء بينكم، لا شيء يحدث.. تعرف أنت الفتيات؛ لسن ملائكة، أحياناً كثيرة يخطِئن ونحن ننسى، لكنهن يتغيرن لدرجة أنك لتستغرب هل كُنَّ هكذا حقاً؟! هل أحببنَ غيرنا؟! إن الأسوأ من أن ترضى بالحب من طرفٍ واحد هو أن يظل الطرف الآخر يرمي لك كسرات الخبز ويعذبك بالكسرات الأخرى التي تذهب لغيرك، لكنك تظلُّ صامتاً ولا تفصحُ عن شيء، ولا يمكنك العودة لو أفصحت.. جديّاً لا يمكنك ذلك بحقِّ الله الذي لا إله غيره، لا يمكنك العودة مهما كان الشخص عزيزاً عليك.. ولو عدت فستشعر أنك تبصق على نفسك كلما تحدثت معه، هل يمكنك ذلك؟! هل يمكن لأحدهم أن يفعل ذلك؟!

وبينما كنتُ أحدّث نفسي كالأبله، غمز لي سامر أن أتبعه..

- معذرة.. سأذهب للحمام، ثم نعود وتبدئين حكايتك يا رغد.

هكذا قال سامر بعد أن غمز لي دون أن تراه رغد، وهي أيضاً لم تلاحظ أنه قال "نعود".. لم تلاحظ هذا الخطأ.. أجابت:

- سأنتظرك.. عُد سريعاً.
- سأذهب لأجري مكالمة.

لم أطق الانتظار معها ولو للحظةٍ واحدةٍ أو كلمةٍ واحدةٍ نتبادلها، كانت مشاعري غاضبةً جداً وأشبه بمتعفنة.. وهكذا ذهبت لسامر، لا أعلم هل كنت ذليلاً أم عازماً على الصراخ في وجهه.. أتى من خلف أحد الأعمدةِ هزّني من كتفي وهو يقول:

- اسمعني جيداً؛ تلك الفتاة التي هناك غبية، لكنها جميلةٌ ومختلفةٌ أنا أسايرها كثيراً..

قلتُ وأنا أبتعد قليلاً:

- هل حدث بينكم شيء؟!
- عندما كنتَ في الحمامِ بدأت تسألني أسئلةً شخصيةً عن الفتاةِ التي سأحبها، وعن الأشياء التي لا أحبها في الفتاة، والأشياء التي تثير غيرتي، هل رأيت عندما نادتك يا أخي؟! أخبرتها أنني لا أوافق أن تكون زوجتي المستقبلية متشاركةً مع شخصٍ آخر في منزلٍ واحد خاصةً لو كان رجلاً. حينها بدأت تعتذر كثيراً كما لو أنني قصدتها أو أعرف أنها فعلت ذلك معك، كررت كثيراً قول "لو كانت لوحدها" و "لو كانت في خطر"، ثم

سألتني فيما إذا كنت أحب أن يكون مع زوجتي أصدقاء أم لا، لم أكن أعلم أنها تفكر كما سأقول لك لاحقاً، لكني أجبتها قائلاً: أفضل النساء هن الوقورات الرائعات، لا يجعلن لكلِّ شخص حق عليهن، لا يرخصن أنفسهن، ويجعلن بينهن وبين الآخرين حدوداً، وهكذا أيضاً للرجال.. أنا أكره الذين لا يفعلون اعتباراً للحدود، أتذكر فتاةً في الـ ١٨ من عمرها نعتتني بالغبي ونحن نضحك، أوقفتُ الضحك حينها وأخبرتها أنني أكبر منها وأن عليها تعتذر، صمتت بإحراج واعتذرت.. ربما لهذا يا توفيق نادتك يا أخي وهذا الأمر الذي أود أن أخبرك به؛ هذه الفتاة الحمقاء تحبني.

- هل تحبها أنت؟! فعلت كلّ شيء تكره.

أجاب وهو يداعب شعره:

- في خضمِّ حديثنا قلت لها أنني قد لا أهتمُّ إذا وجدتُ فتاةً هكذا، إذ أنها ستتغير بعد أن تعرفني.. كنت أتحدث جديّا عن نفسي، لقد أثار ذلك طابعاً واضحاً من السرور على ملامحها التي كانت مرتبكةً، حتى أنها تمططت كالقطةِ أمامي في الطاولةِ تمطُّ جسدها فقط ليصطدم كفها بيدي فتبتسم على أنها غير مقصودة، ثم تمسك يدي وكأنها تودّ أن تفعل ذلك وهذا الشيء عادي بالنسبة لي لكنها سحبتها سريعاً، ربما ظنّت أن ذلك لا يعجبني.. وأنا حقاً لا يعجبني ذلك.

قلتُ وقد بدأتُ أشعر بجسدي يخمل:

- أجب على سؤالي؛ هل تحبها أنت؟!
- لا أعلم! (قالها سامر باقتضاب)..

قلت:

- ماذا لو كنتُ أنا أحبها؟!
- لكنك صديقها!
- أنت تعلم أنني أحبها.
- أنا لا أعلم أنك تحبها.
- سامر! ألم تشعر بذلك؟!
- أنا لا أعلم أنك تحبها.

بدأ قرص القمر الدوّار ينتصف السماء الصافية، ونسمات هواءٍ خفيفةٍ تدخل رئتي، هواء لو كنت في موقفٍ آخر لأشعرني بالقوة، بينما هناك سحابات بعيدة تبتعد أكثر؛ ربما اكتفت من سماعنا..

قال سامر:

- دعنا نعُد، فقد تأخرنا عن رغد.
- سامر.. هل تتذكر عندما كنت أحكي لك عن رغد؟! عندما كنا في السيارة الاثنين أنا ورغد..

قال سامر مقاطعاً كمن وجد الحُجة:

- أجل.. أجل حتى أنك حكيت لها عن حبيبتك.. هذا أمر رائع ويثبت أنك لا تحبها.
- لكني لم أكمل الحكاية.. لقد كانت هي رغد، الفتاة التي مرض جسدي لأجلها، هذه الفتاة التي تجلس هناك؛ لقد كانت صديقة أختي، وكانت هي الفتاة التي أحببتها قبل أن تذهب!
- رغد هي؟! كيف ذلك؟! وكيف لم تعرفها؟
- في البدايةِ لم أعرفها حقاً حتى أمعنتُ في ملامحها.. لقد مضت عشر سنوات، كنتُ حينها في الثامنةِ عشر وهي في الثانية والعشرين ربيعاً، وعندما كنتُ أروي لها القصة كنت رجلاً آخر غير الفتى الذي قابلها في الشارع قبل عشر سنواتٍ وكنتُ أعرفُ أنها رغد، لقد عرفتني أيضاً لكنها أخبرتني أنها تغيرت وأصبحت امرأة أخرى غير تلك التي أعرفها. لقد سمعت أنها سافرت بعد أن عدوتُ خلفها في الشارعِ بعام، وبعد حادثة الشارع لم ألتقِ بها وعزفت عن رؤيتها ولو صدفةً في المنزل.. في الفندق أمسكت بيدي وأخبرتني أنني أصبحت رجلاً رائعاً وأنها حقاً آسفة. الإنسان يا سامر ينسى كلّ شيء، وحينَ أدركتُ أنها رغد تهافتَ قلبي وعاد إلى ولعه القديم وكأنّه لم يَتُب، أمسكتُ كلتي يديها وقلتُ لها: "لم أجد امرأةً قبلكِ بهذا الجمال.. إياكِ أن تفلتي يدي فأنا لا أعرف سوى

رغد، رغد الباسقة والجميلة. أنا لا أتغزل بكِ لأنك هكذا، اللهُ أرادَ أن يجعَلَكِ هكذا".

كان سامر مذهولاً جداً من كلِّ هذه التطورات، قال وهو يهرش ذقنه بعصبية:

- لكن ماذا حدث في الشارع ذلك اليوم؟! ولماذا لم تخبرني أنك تعرفها من قبل؟!
- لأنك لو عرفت أننا نعرف بعضنا لن تحضر، وستخمن أننا عصفورا حبٍّ وأنك حين تأتي ستضغط على أنفاسنا فقط، لهذا أجّلت قليلاً إخبارك هذه النقطة.. أما عن الذي حدث هو أنها ضَحِكَت كثيراً، غرقت بالضحك وأخذت تربت على شعري وقالت إنني أخوها الصغير ونصحتني أن أهتمَّ بدروسي المغفلة.. لا تجعلني أتذكر هذا الموقف مجدداً، فقد آلمتني كثيراً، لقد قضت على كل الأمل في قلبي، لكني الآن أتفهمها؛ حتى هي اعتذرت مثلما أخبرتك يا سامر.

أنهيت كل ما في جعبتي وانتظرت ردّ سامر..

- لكن هل تعتقد أنها تحبك الآن يا توفيق؟! كن صادقاً مع نفسك!

قالها وهو يمسك بكتفي ومنفعل قليلاً.. أجبته:

- أنا أعشقها يا سامر، افهم ذلك!
- دعنا نعد..
- فلنعد.

عدنا إلى الطاولة أمام أعين رغد الصامتة، وقبل أن تنبس بحرفٍ بدا سامر عصبياً وهو يقول:

- احكي روايتك، نحن سنصمت وأنتِ وحدكِ ستتكلمين!

وقبل أن تسأل عن أي شيءٍ قلت لها بحدة:

- ابدئي!

لم تجد أيّ مفر.. ومع تحركات عينيها المرتبكتين اللتين سرعان ما هدأتا وهي تقص علينا حكايتها، بدأت بالروي..

****

الفصل الثالث

عن تلك الحالة التي يتحدث عنها الجميع في كلِّ مكانٍ يذهبون إليه، عن حالة الملل التي يعانيها الجميع في الشارع، في العمل، في المنازل، وفي مواقع التواصل الاجتماعي.. الحروب، القهر، الظلم، وذلك الحبس الخانق لحريةِ المرء من كلا الجنسين.. كنا في السابق نشدو لحرّية المرأة، وكانت المرأة تشدو لذلك، الأمر لا ينطبق على جميع النساء، فهناك من رضينَ بقمع حريتهن تحت فوهة مدفعِ المجتمع، ينظرن لك بسخريةٍ - إذا ما حاولت أن تحدثهن عن أمورٍ يرفضها المجتمع - ولا يعِرن لكلامك أيّ اهتمامٍ أو حتى يشعرن بداعٍ للاستماع.. وهناك الرجال أيضاً؛ يقمعون هذه الحرية بدءاً من كونهم أبناء؛ يقمعون حرّية أمهاتهم، وهذا يذكرني بأحد الأيام في حارتنا عندما أرسلتني أمي إلى الدكان لأشتري لها بعض متطلبات المنزل، كان الدكان يقع بعيداً قليلاً عن منزلنا خلف المسجد الذي يؤدي فيه أبي صلواته جميعها ماعدا العصر؛ يؤديها بالمنزل بكلّ خشوع وتأنّي حتى لكأني كنت أرى صحة الصلاة فيه، دخلت الدكان بسلامي المعتاد، رأيت في ذلك الوقت امرأةً قد تكون في عقدها الخامس؛ ترتدي الجلباب من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها بطبقةٍ تعلو طبقةً ونقابٍ على الوجه لا يُظهِرُ سوى عينيها، وابنها الصغير في نحو التاسعة أو الثامنة

يهزّها من جلبابها بغضبٍ لحديثها مع صاحب الدكان وقد بدت مُحرَجَةً من تشدّده حيال ذلك. ثارت في داخلي حمئة غضبٍ كبيرٍ، بأيّ حقّ يحق لهذا الغِرّ أن يعامل والدته بهذه الطريقة؟! أليس لأنه رأى ذلك كثيراً؟! أليس لأن لديه أب خرتيتي* يشجعه على ذلك ويكثر الملاحظات لدى والدته بينما هو موجود حتى صار ما يختلج في داخله هو أن المرأة عبارةٌ عن قنبلةٍ ستنفجر عُهراً ومُجوناً إذا تركها وحدها دون مراقبة؟! هذا منظرٌ بسيطٌ أثار فيّ الغضب وصرت ألعن وأشتم من داخلي لهذا المجون الذي نحن عليه. أيضاً بعض الإخوة يقمعون أخواتهم عن كل ملذات الحياة بحجةِ أنها فاجرة، وأن المرأة مكانها البيت، وأنها مهما حاولت أن تدرس أو تعمل فمكانها البيت.. "أيش أحسن من البيت؟ الشغل؟ الشغل؟ تخيل لو كانت تفعل حاجة كدا ولا كدا؟ بعدين أبكي ولا أضربه ما فيش فائدة بعده". هذه كلمات صديق لي وأنا أتناقش معه وأخبره عن ضرورة عمل المرأة في المجتمع.. كان رده لهذه المسألة مستخلصاً بهذه الجملة: "تخيل لو كانت تفعل حاجة كدا ولا كدا؟" هذا كل ما كان يفكر فيه، كيف يسمح أن تظل أخته بعيدةً عن عينيه وليست داخل قفصها؛ المنزل؟! حتى الخروج إلى الجارات أو الصديقات كان يعدُّ مشقةً لفتيات أغلب البيوت.. وطبعاً لم يكن صديقي الفاضل سوى مجرد شهوانيٍّ يطارد الفتيات في الشوارع حتى الظهيرة، ومن ثمَّ يداوم في عمله الثاني وهو الوقوف إلى جانب بوابة

---

* نسبةً لحيوان الخرتيت أو وحيد القرن.

مدرسة الثانوية للبنات ليستمر في مماحكته ليستولي على فتاةٍ ساقطةٍ من جنسه، أو الله أعلم كيف وثقت فيه! هذا هو الأخ الذي يرى أن أخته كانت ستكون مثل هؤلاء الفتيات لولا أنه حافظ عليها في المنزل.. وبعض الفتيات – للأسف – أصبحن ماجنات عاهرات ستحفر في أرض غرفتها مثل الفأر لتجد الجنس الآخر، لتستنشقه، ولتقول له: "هيتَ لك"! أو تبكي آناء الليل والنهار تندب حظها العاثر بأخٍ كهذا بينما صديقاتها يسخرن منها ويروين لها الحكايات التي كانت بسبب حبسها مذهلةً كأن مثلاً: "الأستاذ حقنا دمه عسل، أو اليوم شفت واحد شفايفه كنت بادوخ عليها، أو من هذا القبيل من القصص"، وقد يأتي لها الخبر من أحد صديقاتها: "اليوم أخوك شفته مع بنت في السوق.. بنت مش ولابد (كدا وكدا) وشكله فرحان وعادي وعاده كمان دخل معها يأكلوا آيس كريم.. فاعل لنا زحمة عليكِ أنتِ لو قلتي حتى بتجي لعند بيتنا".. وهنا تفكر البنت المسكينة: "ألست فتاةً مثل التي معك – يا أخي – وأحتاج أن تخرج وتضحك وتأكل آيس كريم؟! لماذا تسعد ابنة الناس وأختك في المنزل تستجدي من يساعدها؟!" وهكذا تفكر الفتاة أن الأخ ليس مشروع سعادةٍ ناجحٍ لمن لا يُثرن شهوته، ولكنها أيضاً يمكنها أن تثير شهوة أشخاص آخرين وتأكل آيسكرياً مجانياً لذيذاً، وهناك ألف طريقة وطريقة.. حتى أنني سمعت أن هناك فتاة كانت تدخل حبيبها إلى منزلها في غياب أمها وكان يلبس جلباباً على أنه صديقتها ويبقون لوحدهم داخل منزلها الكريم بحضور أبيها وأخيها..

(ستحفر في أرض غرفتها مثل الفأر لتجد الجنس الآخر، لتستنشقه، ولتقول له: هيتَ لك!)..

وهناك صنفٌ آخر متعلّقٌ بالزوج وزوجته؛ ومهما تحدثنا عن هذا الأمر فلن نوفيه حقه، إذ هناك من يشتم زوجته وينعتها بصفاتٍ تعيبها؛ فقط لأنها ليست بالتفصيلِ الذي على مزاجه وكأنه يلوم نفسه – بشتمها – على تضييع فرصته للزواج من فتاةٍ أخرى لها جسمٌ أفضل، أو كأن المال الذي دفعه يُجيزُ له أن يشتمها متى ما أراد. كنت أعرف زوجة رجل يناديها (يا حمارة)! وعندما كانت تسأله عن السبب يقول: "أصلاً ما تفهمي عربي أقلك ثور تقولي أحلبه" يقصد أن أي أمرٍ يوكله إليها لا تقوم به على أكمل وجه.. ففي مرةٍ قامت بإفسادِ الطعام وضيوفه من زملائه بالعملِ عنده معزومين واضطر مع الكثير من الحرج أن يؤخرهم ساعة كاملة، لكنه لم ينسَ أن يدخل عليها للمطبخ ويضرب رأسها بالغلّاية حتى بكت، وأصدقاءه يضحكون ويسخرون قائلين: "شكل الحكومة ما بتوزع أكل على الشعب"، وصوتٌ آخر يقول: "الحكومة عندك قوية" طبعاً الحكومة المقصودة هنا هي الزوجة وكأنها تحكم رجلها.. وبعد أن ذهبوا قام بشتمها وصرخ في وجها ورفسها بقدمه في ظهرها وهو يتذكر سخرية أصدقائه من فحولته في المنزل.. كانت في وضع الخائف جداً المولي ظهره لخصمه كي لا يُصابَ بوجهه أو بمعدته؛ حتى سقطت على الأرض.. كانت الزوجة المكتئبة تبث شكواها إلى حبيبها الذي تلتقيه خلسةً في الشارع،

في مقهى، أو – إذا تسنّى لها – في أحد الفنادق المشبوهة لمدة ساعتين أقنعت فيهم زوجها أنها في منزل صديقتها (المتآمرة معها)، وهنا تبثّ كلّ ما في قلبها وجسدها ونشوتها وصوتها..

لكن الآن أيضاً لم يتوقف الأمر على النساء فقط، بل صار للرجال معاناة أضخم، إذ صاروا يساقون كالمواشي إلى الحروب والموت وهم يرددون لحنها وغنائها فرحين مبتهجين.. هناك من النساء ما زالت تناضل من أجل البقاء، وهناك نساء توقفن عن ذلك منذ زمن واقتنعن أن العيب هو العكس..

****

"وفي مدينتي يغنون للموت، رجال تغني حتى الموت، يرددون أهازيج القذائف مبتسمين، ونساءٌ يعانين حدّ التخمة، الوجع للمدللات فقط!"

هكذا أنهى الجد **صالح** هواجسه التي كان يلقيها أمام تلك الوردة الحمراء ذات الثامنة عشر ربيعاً وهي تصغي إليه باهتمامٍ بالغٍ حتى أنك لتتخيل أذنيها من خلف الحجاب تهتزان كجروٍ سعيد.. كانت تحب أن تسمعه يتحدث عن ماضيه، خاصّةً عندما كان طِفلاً، لقد كان الفضول يغمرها حول هذه الورقة العجوزِ وماضيها، ولم تتخيل بعد أن لكل هذه التجاعيد ماضٍ طفل كمثلها.. هو الوحيد الذي مهما لفظ من كلماتٍ بذيئةٍ لن تستاء منه، ولن تقلق إن رآها أحد تستمع أو تضحك، فهو بالكاد يراها وبالكاد يتحدث والجميع يحترمه دون استثناء.. كان العجوز يمسك العصا ويجعلها تحت ذقنه ويبتسم كما لو أنه كلبٌ مريضٌ يبدو كنحتٍ في متحفٍ قديمٍ أو كجثةٍ تم تحنيطها.. هزل العجوز هذا العام أكثر من أي وقت مضى، ولو كنتَ معه في العامِ السابق ورأيته الآن فإنك ستخافُ بشدة.. قال العجوز وهو ينزل يديه المرتجفتين الخشنتين اللتين توحيان بالثبات:

- والآن ساعديني – يا بنيتي – لأعود إلى المنزل، لم أعد أستطيع السير.

ثم أردف بينه وبين نفسه وهو يحاول النهوض:

- أشعر أن العظام تتآكل من الداخل.
- بهذه السرعة يا جدي؟!

هكذا أجابته بلقيس وهي تحاول أن تعدله عن قراره، ابتسم العجوز فأصبح وجهه أقرب للثوب المجعد، وقال:

- أصبحتُ أتعب كثيراً من الجلوس في الخارج، فعوادم السيارات تخنقني ورئتي أصبحت عجوزاً جداً؛ تلومني في كلّ ليل.. قديماً لم يكن هناك هذا الكمّ من السيارات والمصانع، كان الجو أشبه بوجه القرية المريحِ الباسمِ، كلما اشتقنا للسماء رأيناها.

ثم صمت قليلاً وأردف ضاحكاً:

- كما أنني أخبرتكِ من قبل، أدعُني صديقي العجوز وليس جدي، ما زلت شاباً ووسيماً جداً، أليس كذلك؟!

كان ذلك يضحك الفتاة بشدةٍ، ويطرب قلب العجوز عندما يسمعها تضحك من مزاحه.. رافقته الشابة إلى باب منزلهِ بخطواتٍ بطيئةٍ ممسكةً يديه، وكانت تودّ أن تقول شيئاً قبل أن تذهب من عند الباب، لكنها تحاشت الفكرة وابتعدت.

خرجت الشابة الحسناء من داخل مبنى العمارة التي يسكن فيها العجوز، وهو مسكنٌ صغيرٌ في الدور الأرضي، خرجت إلى شارع حارتها تتنفس بارتياح وتشاهد الأطفال يلعبون كرة القدم وشجر **السيسبان** يخرج من جنينة منزل العم **فرج**، العم فرج هو الذي وضع هذا الشجر ليغطي الجدار كي لا يتسلق الأطفال ويقطفوا من شجرة التين التي في وسطِ باحته.

بدأت تتصاعد أنفاس تلك الشابّة فجأةً وبسرعةٍ دون إرادةٍ منها عندما شاهدت ذلك الوسيم ينظر إليها! كانت قد رسمت علاقةَ تبادل النظرات مع **خالد**؛ وسيم الحي، أجمل شابٍ وأقوم جسدٍ رياضيٍّ، أفضل طبعٍ وقت الشدائد وأمرح طبيعةٍ سوقيةٍ على الإطلاق.. كانت تلك صفاته المتواترة، هي لا تنكر أنه كان بذيئاً أحياناً؛ بل أغلب الوقت، لكنّ ذلك كان يشعرها بالنشوةِ خاصةً عندما يطلق تلك الشتائم السوقية الفَظّة، (فيما بعد اكتشفت أنه مختلفٌ عن ذلك في الهاتف عندما تحدثت معه)، أو عندما يدخل في معارك مع أصدقائه؛ هي لا تشاهد إلّا إذا تصادف الأمر وهي موجودة وقت العراك، تطرق النظر من خلف الجميع أو من البعيد دون أن يشعر بها أحد، وأحياناً تركض خائفةً إذا احتدم العراك أو اشتدّ الصراخ.. كان فتى الحي **خالد** دائماً ما يتغلب على الجميع وأخباره تسري بين المراهقات في كلّ منزلٍ همساً بين أواني الطبخ أو ضحكاً في الغرف المغلقة التي تجتمع بها الصديقات..

قالت ريم:

- لقد رأيت خالد ينظر لأمك نظرة غريبةً وهي تدخل للمنزل، فتخيلته يمنّي النفس فيكِ ويتخيّلُ أنها ستكون حماته.. هههه.

أطلقت ضحكةً رقيعةً منتظرةً ردة فعل صديقتها التي أجابت قائلةً:

- هههه.. ينظر إلى أمي نظرةً غريبة؟! تباً! أنتِ تتوهمين.
- لا يهمّ؛ فالشباب معتادون على النظر أبعد من أنوفهم.

ثم أطلقت ضحكةً رقيعةً أخرى، وأردفت وهي تنظر لصديقتها بحدةٍ ومكر:

- ألم تتمني أن ينظر إليكِ هكذا بدلاً عن أمك؟! خاصةً وأنتِ تغسلين الملابس؟!

ضحكت الفتاة الأخرى بكلِّ قوتها ومن أعماقِ أعماقها حتى دمعت عيناها، وأخذَ صدرُها يرتجُّ على نحوٍ مذهلٍ وهي تقول:

- "اسكتي جعلّك الخير".

ثم تمتمت بصوتٍ خافت: يا ليت..

- سمعتك.. سمعتك.. أووه! هل سمعتن يا فتيات؟! هههه.

امتلأت الغرفة الصغيرة بصوتِ الضحكات، وقالت إحداهن:

- خلاص أنا سأذهب إليه غداً وأقول له: لو سمحت عندما تنظر انظر لفاتن وليس لأمها، فأمها سمينةٌ متهدجة، وسيموت الفرس إن ركبتَ عليه.

وأطلقت ضحكةً كادت تهزّ جدران الغرفة.. بينما صوت أخرى تصرخ:

- نحن نضحك الآن؛ لا تحجزيه لكِ، كلُّ فتاةٍ ونصيبها.

هذه الفتاةُ من النوعِ الماكر.. وبينما كانت تصرخ فاتن وهي تضحك وأعجبها أنهم يتكلمون عنها وعن خالد، وقد لاحت لها الكثير من التخيلات؛ قالت:

- هش! ستسمعكم خالة.. هش!

ولم يتوقف هذا المجون حتى دخلت والدة صديقتنا المضيفة وبيدها الكعك تسأل عن سبب الضجة..

"- هذا كان مثالاً بسيط لإحدى تلك الغرف المغلقة والتي في الغالب أكون معهم صامتةً أسمعهم بكل حنقٍ يا حبيبي خالد.
يرد خالد بكل هدوء وبصوتٍ مرتخٍ عكس ذلك الذي يدوي في الشارع:
- لا يهمني أحدٌ غيرك."

ففي إحدى الليالي الصامتة استطاعت فتاتنا أن تحظى برقم خالد بعد أن أخذته خلسةً من هاتفِ أخته، وأول رسالةٍ منها إليه كانت:
- هل سمعت فيروز وهي تغني "كيفك إنتا"؟
يا لها من رسالةٍ بالغة الروعة! خرجت ناتج رقصةٍ محمومةٍ بعد أرقٍ طويل. ومنذ ذلك اليوم أصبح خالد مهذباً أنيقاً يبتسم دوماً وصوته أقرب لنقاء صوتِ البحر المتكاسل.. تحدثا كثيراً عبر الهاتف، تحدثا عن كلِّ شيء، حكى لها عن تفاصيلٍ لا يعرفها غيرها؛ خبأتها في طياتِ قلبِها المحمومِ بحبه.. إنَّ خالد أرقّ مما تصورت، وألطف مما يظهر عليه، ليست له علاقاتٌ كثيرةٌ مع الفتيات كما كانت تتخيل أو حتى مع **فاتن**.. كان خالد شخصاً رائعاً جداً، ولم يكن مغتراً بنفسه.. لقد أحبها جداً وغازلها كثيراً، وكان ينظر لها ويراقبها كلما خرجت، كان يتبعها إلى الدكان ليراقب ما إذا تعرض لها أحد، وكانت تشعر

بالزهوِ وبالفرحةِ بينها وبين نفسها لأنها لم تخبر أحد عن علاقتهما.. كانت تفرح كثيراً عندما يصفُ لها كم يحبها، ودائماً يتذكران أولّ رسالةٍ لها، قالت له:

- في ذلك اليوم فكرتُ كثيراً، كانت ليلةً صامتةً والسماءُ صهباء مرقعةٌ بالنجوم.. كنت أودُّ رسالةً جميلةً لا تُنسى، وفي تلك الليلةِ قمت ورقصت حتى تبللت ثيابي عرقاً ثم ذهبتُ واغتسلت، وعندما خرجتُ تبادرتِ الرسالةُ في رأسي، كانت الساعة وقتها الثالثة فجراً.

لم يخرج خالد وبلقيس أبداً، كانا يجتمعان للحظاتٍ في الحي إذا ذهبت للدكان، خلف أنظار الجميع يتأملها ويقول لها "أحبك"، وهي تخجل وتذهب، وعندما تتحدث معه عبر الهاتف تغدق عليهِ بحبِّها وتخبره أنها تكون خجلة جداً.. وفي الحقيقة هي لم تكن خجلةً؛ بل فاقدةً للشعور، وأحيانا تمرضُ إذا لمس يديها بكفّيه؛ تلازم الفراش وهي ترتجف وتظل طوال الليل تحلم به أحلاماً مُخجِلَةً لا تتحدث معه عنها.

****

الفصل الرابع

توقفت رغد عن الحديث لتشرب بعض الماء بينما بقيتُ وسامر ننظر لها باستغراب.. قالت:

- أفهم استغرابكما، لكن انتظرا قليلاً فأنا لم أنتهِ بعد؛ ستفهمان كلَّ شيءٍ في وقته.

ثم سندت ذقنها على كلتي يديها من الخلفِ كما فعل العجوز الذي تحدثت عنه.. قلتُ لها:

- أكملي.!

وهزّ سامر رأسه كي تكمل أيضاً.

قالت:

- استمر هذا الحب لعامين ونصف، حتى تقدم خالد لخطبتها مع أهله.. كانت ليلةً مليئةً بالفرح، حضر الأهل والإخوان من الداخل والخارج وامتلأت الليالي التالية بالصخب والبهرجة.. ويوماً عن يومٍ وفتاتنا بلقيس لا تتوقف عن الدورانِ في المنزل دون إرادةٍ منها وكأن قدميها تشتعلان؛ تنتظر اليوم الذي ستكون فيه مع خالد في غرفةٍ واحدة.. زُيِّنَ المنزلُ في الليالِ الملاح، وتزيّن جميعُ من في المنزل، كانت ليالٍ لا يمكنها أن تفلت من البال.

قبل أن يتقدم لها خالد أخبرها أنه أتمّ آخر تحويشةِ مالٍ له، وأنه الآن مستعدٌ لخطبتها.. في تلك الأيام كانت فتاتنا حزينةً كأغلبِ الفتيات المزاجياتِ في سنها وتتمنى أيَّ شيءٍ يفرحها، كانت تعتقد شيئاً في داخلها؛ لكنها لم تصرّح به، إذ أنها لم ترَ بعد في حياتها القليلة فتاةً تزوجت عن حبٍّ، لذلك لم تكن تتوقع أن يخطبها خالد وكانت تعتقد أن الأمور ستنتهي كما كانت تتوقع بالفشل، وكانت تتوقع أقربَ عذرٍ أو مشكلةٍ تنهي الأمور، لذلك عندما أخبرها بالخبر ظلّت صامتةً نصفَ دقيقةٍ لا تكاد تصدق ما تسمعه!

في ميعاد الخطوبة..

تقول بلقيس:

- عندما أخبرتُ والدتي بأمرِ خالد تحوَّل وجهُا إلى اللون الأحمر في بادئ الأمر لم أفهم لماذا! لكنها عندما تحدثت لم أتوقع أن يكون هذا السبب، قالت: "خالد؟! ومن متى تتكلموا وأنا مش عارفة؟! وأنا أقول عليكِ بنت مهتمة بدراستك وأنتِ تكلمي هذا الصايع ابن الصايع!*" شوفي لدراستك، وبعدين فكري بالزواج من شخص منك وفيك.. ولا أشتي أسمع كلمة!".

*الصايع تعني الشخص الذي لا يملك أيّ عمل ويقضي وقته في اللهو، وهي أيضا تُقال للأشخاص السفهاء، البلاطجة، ...إلخ

هكذا أنهت الأم كلماتها المقتضبة القليلة، وصديقتنا بلقيس لا تصدق أن هذا يحدث.. ثم جاء الأب وبعصبيته صرخ في وجه بلقيس وجمّد كلّ الدمِ في عروقها، ولكنها لم تستسلم ولم تخبر خالد بالأمر عازمةً على حلّ المشكلة لوحدها، وظلّت تأخره بحججٍ واهيةٍ وهو يستعجلها.. كانت لا تأكل، ولا تحدث والديها، وتلزم غرفتها بعد أن فرغت جميع محاولاتها، وأصبحت منطويةً على نفسها كثيراً.

حدث مرةً عندما جاء صديق والدها إليهم أنه لاحظ شحوبها الواضح للعيان ولونها الأصفر الفاقع، ولكنه أخبرها أنها جميلةٌ فقد كانت كذلك حقاً، حتى أن عروق وجنتيها كانت تتسلق وجهها الأبيض الصافي.. سلمت عليه ولم تتناول الطعام؛ كانت كالشبحِ في المنزل، وطبعاً صديق والدها لمّح لصديقه أن هناك خطبٌ في ابنته.. رأى الأب والأم أنه لا فائدة من رفضِ ذلك خاصّةً بعد أن ذبلت ابنتهم وأصابها الحزن الشديد وأصبحت باردةً طوال اليوم أكثر فأكثر.. وفي تلك الليلة التي اتفق فيها الوالدان؛ أخبرها والدها أنه موافق وأنه لا مشكلة في ذلك طالما أن ذلك قرارها، ثم أخبرها أن لا بأس بقرارها وأن خالد رجلٌ يُعتمد عليه بالرغم أنهم كانوا يريدون لها شخصاً أفضل، ثم قال:

- أخبريه أن يأتي لطلبِ يدك.

وهكذا تمت الخطوة الثانية بعد معاناةٍ طويلة.. واستمرت الأيام حتى يوم الزفاف الذي كانا يحلمان فيه؛ خاصّةً بالطفلِ الذي كان يتحدث عنه خالد

والذي قد قرر أنه سيشبه أمه بلقيس، واسمه... لا تتذكر أي أسم قرَّر لأنه اختار مئات الأسماء حينذاك.

انتقل الزوجانِ إلى شقّةٍ للإيجار جهزها كلاهما، كانت بسيطةً ومريحةً تقعُ في الدور الأرضي، عبارةً عن غرفتين وحمام ومطبخ وصالة صغيرة، كان خالد رقيقاً جداً مع زوجته ودائماً ما يحلم بالطفل القادم، كان يقول حين يعود من العمل – إذ كان يعمل حارساً لأحد الشركات – بينما يتناول الطعام:

- أريد طفلاً يحمل اسمي يا روحي؛ يلعب معنا داخل المنزل، ينعش قلبي، وسأحبه جداً، سأدخر كلّ المال ليعيش أفضل منّي وبرفاهيةٍ أكبر.. لكن تخيلي لو قال لي: "أريد سيارة"؟! ابن الكلب! أنا قضيت طوال عمري مشياً أو أتنقل عبر المواصلاتِ العامة وهو الآن يحلم بسيارة؟!

ثم يضحكا معاً.. قامت بلقيس بكلّ ما يجب لإسراع الحمل، تفعل كل المغريات، تضع العطر والفل وترتدي أشكال الملابس المغرية وأنواعها، وكان خالد يشعر بها ويخبرها ألّا تستعجل لأن زواجهم لم يتمّ الأسبوع فقط.. وعندما يكون خالد خارج المنزل؛ تعدّ بلقيس الطعام وتسمع الأغاني التي تجعلها ترقص بينما تنظف منزلها النظيف أساساً، وأحيانا تمر إليها صديقاتها أو أهلها ويسهرون، وأيضاً تذهب هي إليهم بعد أن تستأذن من زوجها، ولكن في أغلب الأيام تقول بلقيس:

- أضع البخور في المنزل والفلّ على جسدي وأنتظره بفارغ الصبر.. يعود خالد ليفتح الباب بمفتاحه الخاص فأستقبله مسرعةً لأخلع قميصه، ولا ينسى دوماً أن يأخذ مني قبلة.

تردف بلقيس بتنهيدة:

- تلك الأيام الرائعة.. ثم يستنشق رائحة البخور ويرى الفلّ على ثوبي الأحمر ويبتسم، وأنا أبتسم.. لم يكن خالد يسمحُ أن أخلع له إلا ملابسه العلوية، إذ كان يشعر بأنه يقلل من احترامي إذا خلعت له حذائه أو بنطلونه.. طبعاً ذلك كان بالنسبة لي شيئاً عادياً، ولكن تصرفه المحترم هذا وتقديره لي كان يريحني بشكلٍ أو بآخر.

وفي يومٍ عادَ خالد من العمل وأخبرها أن لديه إجازة في يوم الغد وأنهم سيخرجون ويتعشون في الخارج، كانت زوجته بلقيس سعيدة بذلك، وفعلاً حدث ذلك، إذ ارتدت بلقيس ثوباً عاديّاً ثم غطّته بعباءتها المزركشة ووضعت العطر عليها فهي ستكون مع زوجها، ووضعت أحمر شفاهٍ خفيفٍ على شفتيها واكتفت به، كانت أجمل من قمر الليالي الدامسة.. شرع خالد ينظر لها بإعجاب وهو يقول مع غمزة:

- تلك الشفتان كالتوت؛ ألتهمهما ونخرج..

ابتسمت بلقيس بخجلٍ شديد وهي تعبر من أمامه وتنتظره أمام باب المنزل. اختارا الذهاب إلى مطعمٍ يقع في مديرية **كريتر**، وعندما عادا إلى المنزل كانت

معدتاهما ممتلئتين، وكانت هي أقرب للنعاس؛ شرع خالد بتقبيلها على الأريكة وهي تبادله ذلك حتى انطلقا إلى غرفة النوم وقد ذهبت عنها كلُّ ذرةِ نومٍ أو نعاس.

****

مرّت ثلاثة أشهر ولم تحمل بلقيس، تبدّلت الأحوال والأمور، لم يعلم أحدٌ ما الخطب ورفض خالد الذهاب إلى الطبيب وبقي معكر الحال سريعَ الغضب، لا كأنهُ زوجها الحبيب.. أصبح خالد مكفهراً في أغلب الوقت؛ لا يقبّلها ولا يستمع إليها، يصرخ دائماً، وأحياناً كثيرةً ينام بعيداً عنها في الصالة.. سريعاً كما تلبد الغيوم وجه السماء الصافي تغيّر كلّ شيء، تغيّرت حياة بلقيس الهادئة الصافية وذلك عندما بدأت تلك الظهيرة الحمراء.. ففي ظهيرةٍ عوجاء مشمسةٍ عاد خالد من العمل لتستقبله بخلع قميصه دون أن يقبلها، طلب الطعام.. تقول:

"انطلقتُ مسرعةً إلى المطبخ كي أحضر الغداء الذي أعدته بينما كان خالد يخلع حذائه ويجهز نفسه للحمام.. وعندما عدت وجدته في انتظاري وقد كان وجهه أحمراً وأنا خائفةٌ أرتعد؛ لا أعلم لماذا. وما إن تذوق أول لقمةٍ حتى نظر لي وتأمل الطبق قليلاً ثم التفت للجهة الأخرى ليرمي الطبق على وجهي! كان مليئاً بالأرزِّ وماءِ البطاطس والدجاج.. حملني من شعري وأنا أرتجف؛ لا أصدق أن هذا يحدث! وأخذ يقول:

- هذا ليس طعاماً.. أعود إلى منزلي لآكُلَ هذا؟! ماذا فعلتُ في حياتي لأتزوج فتاةً مُعطلةً لا تفعل شيئاً مثلك؟!

ثم رماني على الأرضِ ورمقني بنظراتٍ يتطاير منها الشرر وذهب إلى غرفته.. بقيتُ في مكاني لا أصدق ما حدث! حتى دموعي تحجّرت أمام باب مقلتي،

ظللتُ أرمق السقف لا أشاهدُ سوى انكساري، أدركت فيما بعد أنني جلست طوال الوقت ممددةً غائبة عن الوعي بعينين مفتوحتين تنظران للسقف حتى أيقظتني ركلة خالد في معدتي وهو يصرخ في وجهي كي أحضر له ملابسه! نهضت كالمفزوعةِ أبكي وقد أغرقتِ الدموعُ جليدَ وجهي؛ أبحث له عن ملابسه.. ودون أن يلتفت لي أو يطمئن؛ خرج للعمل مسرعاً.. بقيتُ أرتجفُ وأبكي وأنا أبحث عن عباءتي لأذهبَ إلى منزلِ أهلي، وقبل أن أذهب أعددت له طعام العشاء؛ لم أعلم هل كنت خائفةً منه أم بقايا الحب في قلبي، فلقد كان خالد مثل طفلي ومن الصعب أن تغضب الأم من طفلها أو تلعنه لعنةً أبدية.. خرجتُ من المنزل إلى منزل والدي وارتميت في أحضانِ أمي وكنت أبكي وأمي تبسمل وتحوقل، وجاء أبي يسألني.. وبعد ساعةٍ حكيتُ لهم عن مشكلةٍ صغيرةٍ دارت بيني وبين خالد ووجدوني مبالغةً جداً، وفي النهاية أنا من اخترت خالد وسأجلب الوبال لنفسي إذا تركته، لذلك قررت العودة.. أخبرتهم أنني قررت مع خالد أنني سأعود إليه في الغد، وهكذا كنت أخبرهم في الآونة الأخيرة عندما أذهب إليهم إثر صراخه لأنني بتُّ أفهم أنه لن يجلبني من بيت أهلي؛ لذلك أوهمهم أنه لا يفهم أنني أتيت بمشكلة، فقط أزورهم بشكلٍ عادي.. طوال تلك الليلة كنتُ أتخيل مذاق الدمِ في حلقي إثر الركلة على معدتي. تلك كانت أول ليلةٍ يضربني فيها خالد، ومن أجل ماذا؟! طعام لذيذ كان يأكله بكلّ حبٍّ دائماً، وإذا لم يحببها من أجلي فمن أجل تأدبه مع نعمة

الله.. بقيت طوال تلك الليلة أضرب نفسي وكأن ذلك لم يحدث وأنا أحلم، آمل أن أنهض! وفي اليوم التالي عندما عدت وجدت خالد ينتظرني وهو يقلب التلفاز بملابس عمله قال وهو يبتسم:

- عرفتُ أنك ستأتين في هذا الوقت فتأخرتُ عن العمل قليلاً.

نهض خالد وأقبل نحوي، كدت أصرخ حتى رأيته يقبّل رأسي ثم يديّ ووجنتيّ، بقيتُ متجمدةً لا أصدق أن ذلك يحدث! أخبرني بأنه آسف وأنه لن يكرر ذلك مجدداً فهو كان معكر المزاج من العمل، يقول:

- أنا أعرف أنه لا ذنب لك أبداً وأنني قمت بافتراءٍ عظيم، لذلك أقبّل يديك؛ أنا آسف، وأرجو من لطفِك وحبكِ أن تغفري لي وتسامحيني عمّا بدر مني.. هذا العمل اللعين هو السبب، صديقٌ لي تشاجرت معه والآن سوف أذهب إليهم وأعلم ماذا تحدثوا بشأني.

قلتُ مندهشةً:

- تعاركت أنت وصديقك؟! أين يا حبيبي أين؟!

وأخذت أفتش عن جروحه حتى أمسك يدي يقبلها وهو يقول:

- لا تقلقي – يا عزيزتي – لم يصِبني أذى.

أخذته حينها بعناقٍ وبكيتُ وأنا أقول:

- أحبك.. أحبك يا مالكي ومالك جسدي، أنا لك، جسدي وروحي، ولو أردت قتلي.. أنا الآسفة ولست أنت.

وعندما عاد من العمل كان يحملُ ورقةً في يده وهو يقول:

- تجهزي لنسافر.. لقد نقلوني إلى فرعٍ آخر للشركة..
- ومتى السفر؟!
- غداً صباحاً، جهّزي كلّ شيءٍ واذهبي إلى منزل أهلك، وفي الصباح سأصطحبك من هناك.

ذهبت إلى منزل أبي في الساعة العاشرة بعد أن جهزت كلّ شيء في حقيبةٍ أمام الباب، استغربوا حضوري في هذا الوقت حتى فهموا الأمر وتقبلوه، ذهب أبي للنوم وبقيت أنا وأمي حتى تركتني أنام عند منتصف الليل لأصحو باكراً.. وعند الساعة الثامنة صباحاً جاء لأخذي كما اتفقنا، قررت ألّا أحزن وأن أبدأ حياتي الجديدة في مكاني الجديد بجمالٍ وفرح، وقررت أن أبدأ ذلك من اللحظة، ارتديت أفضل عباءةٍ معي لأنني ما زلت عروسةً، إذ لم يمضِ على زواجي أشهر، ووضعت أحمر شفاه خفيف كالعادة، ارتديت حذائي الأنيق ولبست خماري الذهبي والتحفت يد زوجي بحبٍ ومضينا بالتاكسي الذي أحضره إلى مقرِّ حافلاتِ النقل.. وبالمناسبة؛ كانت رحلتنا من عدن إلى صنعاء، جلست بجانب زوجي في الحافلة، كان يرتدي بذلته الجديدة مهمل الذقن كما يعجبني دوماً، شعره الخفيف يتطاير مع الهواء.. قررت أن تبدأ حياتي الجديدة بكلِّ جمالٍ وفرح، والآن أضفتُ إليها "وحبّ"، قبلت كتفه وأنا التحف يده

ووضعت رأسي عليه، شعرت به يتنحنح وكأنه خجل ولكني لم أهتم وبقيت هكذا إلى أن تحركت الحافلة وبدأت الرحلة.

سبع ساعات من عمرنا قضيناها في هذا السفر، كانت رحلةً موفقةً وهادئة، لم يحدث بها سوى جمود خالد الذي كنت ألاحظه وسكوته الدائم وكأنه أسدٌ يئن من أعماقه ونظراته نحوي وعدم مبادلتي أيّ ملاطفاتٍ أفعلها له.. رويداً وقليلاً جلست مكاني دون حراك.. وهناك موقف يجب أن أرويه:

عندما نزلنا لتناول الغداء، ذهب عنّي خالد ليجدَ مطعماً جيداً وطاولةً مناسبة. كانت الأرض التي نزلنا عليها تشبه أرضنا، مطاعمها تشبه مطاعمنا، المنازل تتشابه، والأطفال أيضاً.. الحياة هنا تشبه حياتنا ومع ذلك تختلف! أعجبني كوني غريبة عابرة لا أعتقد أنهم سيجدونني مجدداً، ملأ قلبي شعورُ الحنين لمنزلي ولعدن، وبقيت أتفحص وجوه الأطفال من حولي الذين لا يعرفون سوى هذا المكان ولا مكان غيره.. أقبل نحوي شاب من أهل تلك المدينة بابتسامةٍ جميلةٍ وقال:

- يا أخت! من فضلك؛ هل تعرفين عمارة (كذا) أين تقع؟!

ابتسمت له بلطفٍ، فقد كان شابّاً يبدو الأدب على محياه، كما أنني كنت أود ذكرى من هذا المكان ولو حديثاً مع شخصٍ واحدٍ وسريعٍ جداً.. قلت وأنا أيضاً أظهر اللطف والأدب:

- آسفة.. هذه أول مرة لي هنا، أنا غريبةٌ جئت عبر هذه الحافلة لأتناول الطعام وأرحل.

بدت على وجهه الدهشة، ثم حرك شعره الطويل البني حتى منتصف عنقه للخلف وسأل:

- من أين؟!

أجبت وأنا أضمّ حقيبةَ يدي تلقائياً:

- من عدن.

أجاب سريعاً:

- أشجع الرجال، وأجمل الفتيات..

ثم أردف قائلاً:

- هذا يفسر جمالك.

ضحكتُ من لطفه وابتعدت، ثم نظرت له لألقي عليه "شكرا"، وابتعدتُ أبحث عن زوجي".

****

دخلت بلقيس منزلها.. كان يبدو كمخزنٍ قديمٍ تحول إلى غرفةٍ وحمامٍ ومطبخٍ وصالةٍ صغيرةٍ تسع فقط للمشي بها، كان مرتباً من الداخل بالرغمِ من صغره الذي جعل أنفاسها تختنق مما اضطرها لفتح النافذة الوحيدة المطلة على الشارع واستنشاق بردِ صنعاء اللذيذ في موسمِ الصيف، خُيِّلَ لها وجه ذلك العجوز؛ جدّها الذي كان يصبُّ في أذنها الحكايات، يبتسم ويعدّ نفسه أولّ وجهٍ تُصادقه في صنعاء.

فجأةً شعرت بلقيس بيدٍ من خلفها تجذبها من ساعدها وترميها نحو السرير، رأت خالد يفعل ذلك وهو يقول:

- اجلسي يا تافهة!

ثم قال:

- هذه النافذة لا يجب أن تُفتح.. هل فهمتِ؟!

ثم أردف وهو يزوم في الغرفة ذهاباً وإيابا كأسدٍ جريح:

- سنتحاسب على أشياء كثيرة من اليوم يا بنت الكلب.

انفجرت بلقيس:

- ماذا حدث؟! أنت مجنون؟! في أول يوم! ومن أجل فتح الشباك؟ لن أفتحه؛ قل ذلك بأدب! و ...

لم تصمت بلقيس إلا عندما وجدت خدّها احمرَّ كالجمر، ورنيناً يدوّي في أذنها اليُمنى، رنيناً حارقاً مُبكياً.. يقول خالد بكل هدوء:

- قلتُ ولا كلمة يا بنت الكلب.. هل فهمتِ؟!

ركلها في ركبتها مما جعلها تقفز وهي تجهش بالبكاء لتدرك أن اللعبة لم تنتهِ بعد، وتردد:

- فاهمة والله.. فاهمة.

يتقدم نحوها بينما تبتعد هي وكل عصبٍ في جسدها يرتعش، يركل الهواء ليخيفها أكثر.. يقول خالد:

- أنتِ بنت من؟!

تصمت بلقيس يائسة..

- لم أطلب منكِ أن تصمتي.

يقول ذلك وهو يخلع حزامه، تجهش بلقيس بالبكاء أكثر وهي تقول:

- أنا ابنة كلب ابنة كلب..

تقول ذلك وهي تضرب بيدها على صدرها كزيادةٍ للتأكيد.. يتوجّه خالد لخلع ملابسه والاستلقاء على السرير، ومازال الغضب يرسم ملامحه، بينما تكورت بلقيس كقطٍّ جريحٍ في زاويةِ الغرفة.. خمنت بلقيس – وتأكدت لاحقاً – أن موضوع نقله مجرد كذبة، وأنه فعل ذلك لتبقى تحت عينيه دون أن يكون لديها أحدٌ تذهب إليه.. تكورت كقطٍ يبكي ويندب حظه وهو غير مستوعبٍ لماذا صاحب المنزل فجأةً يراه عبئاً عليه؟!

نامت بلقيس في مكانها واستيقظت لتعدّ الإفطار لخالد وهي تسأل نفسها لماذا لم تنَم في المطبخ؟! أليس هذا ديدن الزوجات الحانقات منذ فجر التاريخ؟! تذكرت أنهم في صباحِ أولِ يومٍ ولا يوجد شيءٌ بعد كي تطبخ، لهذا ارتدت عباءتها على عجلٍ وخمارها وخرجت لأقرب دكانٍ كانت قد لمحته البارحة وهم في التاكسي؛ إنه قريبٌ جداً من منزلها، اشترت رغيفاً وبعض الجبن والبيض وأشياء أخرى وعادت للمنزل، أعدت الإفطار ووضعته على أرض الغرفة وخرجت للصالة.. طبعاً لم ترغب أن تتصل بوالدتها لتخبرها بما حدث البارحة، فقد كانت تعلم أن قلب والديها سيتحطم وأنها ستفتعل مشكلةً عملاقةً جداً، ربما سيصرّ والدها أن تعود، وربما يأتي إلى هنا، ومشكلةٌ تلو مشكلة..

بعد نصف ساعة سمعت صوت خالد يصرخ باسمها، ارتعش كل جسدها وذهبت تركض إليه.. رأته بملابسه الداخلية ينظر للطعام:

- من أحضر هذا؟!
- أنا يا حبيبي، أحضرته لأجلك؛ لأجل أن تفطر..
- يا بنت الكلب! أقول لكِ لا تفتحي النافذة فتخرجين من المنزل؟!

وصفعةٌ أخرى من خالد في وجه بلقيس التي شعرت أن وطأتها أخف من المرة السابقة.

- لماذا؟ لماذا ممنوع أن أخرج؟!

أجابت بلقيس وهي تتشنج وحدقتا عينيها باتساعهما.. كانت خائفةً من الرد.

- وكيف خرجتِ؟!

قالت بلقيس متعجبة:

- كيف؟ كيف خرجت؟! ارتديت عباءتي وخماري وذهبت للدكان.

- عباءتك وخمارك يا بنت الكلب! أنتِ حتى أحمر الشفاه لم تمحيه.. أنتِ كلبة شوارع حقيرة عفنة..

كان يقول ذلك ويشتمها بأردأ الشتائم وهو يقرص شفتيها بيديه، وتعمد أن يجعلها تبكي وهو يشد من قرصته أكثر فأكثر وهي تحاول الهرب.. ثم أردف بعد أن أبعد يديه:

- بعد اليوم سترتدين النقاب، لا تخرجي إلا فيه.

كانت بلقيس تبكي، وتذكرت عندما طلب منها والدها ذلك بلطف، كانت تتدلل عليه وتخبره أن النقاب لا يناسبها وأنه لا أحد من صديقاتها ترتديه وكانت تذهب إلى والدتها لتساندها وتقول لها:

- لا أستطيع أن أقابل صديقاتي وأنا بالنقاب، أنا طول عمري متأنقة.

حتى اقتنع والدها عن طيب خاطر.. كانت تعلم أن كلّ ذلك لا تستطيع تطبيقه هنا وأنها ستمتثل للأوامر مرغمةً.. وعند حلول الليل عاد خالد من عمله، كان وجه بلقيس متورماً من شدة البكاء، اتصلت بها والدتها مرتين في ذلك اليوم وسألتها عن صوتها المتحشرج لتصفَ لها بلقيس برد صنعاء وكيف

يفعل بالحلق.. لم يلتفت لها خالد وواصل السير إلى غرفته، ظلت بلقيس خارجاً لا تزعم أن تدخل بعد أن أعدت له العشاء ووضعته في الداخل، ولم يذكرها إلا عندما طلب الماء، كان وجهه غاضباً جداً وكأنه يعرف شيئاً لا تعرفه بلقيس، وكأنه يتحمل غضباً فوق طاقته.. انتهت ليلة وصولهم بالضرب وبدأت شمس اليوم الثاني بالضرب، ولا تعلم ماذا تخبئ لها صنعاء المهيبة بجبالها وحلاوة أجوائها وفتياتها الملثمات.

وأخيراً انتهت تلك الليلة التي ظنتها بلقيس لن تنتهي..

****

تقول رغد على عجلةٍ من حديثها وكأنها تريد أن تطوي هذا الجزء من الحكاية للجالسين برفقتها؛ توفيق وسامر:

بقي أن أحكي لكما ماذا حدث بعد حوالي عشرة أيامٍ من انتقالهم إلى صنعاء.. قديماً كنت أسمع أن الجمل حيوان حقودٌ جداً، وكان خالد كالجمل؛ لقد تذكر ذلك اليوم أشياءً رهيبةً في حوالي اليوم العاشر عندما قرروا أن يقوموا بالفحوصات ويكتشفوا من هو العقيم بينهم بالرغم أن الجميع استغرب من ذلك؛ إذ لم يمضِ إلا القليل على زواجهم. وبعد أن اكتشف أن زوجته سليمة جداً وأن العقم منه عاد في طريق العودة صامتاً مكفهراً، وما إن دلف إلى

الداخل حتى صفع بلقيس.. يبدو أن تلك أصبحت عادة خالد المفضلة.. بقيت بلقيس متسمرةً في مكانها تنظر له باندهاش.. زمجر خالد:

- أتظنينني لم أركِ؟ أتظنينني مغفلاً؟ أعمى؟! لقد أردتُ أن أمررها لكِ، لكنّي رجل؛ لم أستطع.. قلبي يتآكل كالرجال.. ماذا حدث لك؟ ماذا حدث لمنزلنا؟! أتريدين تخريبه أيتها الطفلة الفاسدة غير المسؤولة؟ ألا تخشين الله؟! هل يجب أن أمسح بشعركِ المنزل وأعلّمك كيف تتصرفين؟

- ماذا فعلت؟!

تمتمت بلقيس بهذه الكلمتين وقد فهمت أن كلّ الصراخ والصفعات التي تتلقاها دون أن تفهم سببها؛ لها سببٌ ستكتشفه الآن.. لقد اختلف عقل خالد كثيراً ولم يصبح الشخص الذي تعرفه، وهي الآن متأكدةٌ أنّه سينطق بسببٍ لا تعرفه ولم تفكر فيه ولا تعدّه مشكلة.

قال خالد:

- تعالي إلى الغرفة.

ثم أخذها من يدها يجرّها جرّاً أمامه وهي تتألم.. قال خالد بعد أن رماها فوق السرير:

- في ليلة سفرِنا إلى صنعاء؛ من كان ذلك الشاب الذي تحدثتِ معه؟ أ تظنينني لم أركِ وأخجل منكِ وأخجل مِن أن يكتشفَ أنني معك؟! معك رجلٌ وأنتِ تتحدثين مع رجلٍ غريبٍ آخر بكلِّ هذه المياعة؟!

- لقد كان يسألنـ...

قاطعها خالد مزمجراً وكأنّه ليثٌ ينهى أطفاله عن الأكل قبله:

- يسألكِ ماذا؟! من أنتِ لكي يسألك عن مدينةٍ هو من أهلِها وأنتِ الغريبة فيها؟ في كلِّ يومٍ تأتي لهم الحافلات إلى ذلك المكان، وشباب تلك المدينة الصغيرة يجرّبون حظهم مع أيِّ فتاةٍ تقع في حبالهم، يبحثون عن أيِّ فتاة لعوبٍ ليس معها رجل. لقد سمعته وهو يخبركِ أنكِ جميلة، ولقد شعرتُ بالغبطةِ عندما ألقيتِ ظهركِ له وذهبتِ، قلتُ آه وأخيراً فهمت فتاتي الصغيرة اللعبة المحاكة من هذا الشاب وهي لا يمكنها أن تقبل بذلك، ولكن ما لبثتِ واستدرتِ له وشكرتِه وكأنه صنع لكِ معروفاً! تشكرين رجلاً غريباً يتغزل بكِ وأنا معك؟!

كان خالد منفعلاً جداً، حينها عرفت بلقيس أنَّ عليها أن تلتزم الصمت، لكن خالد لم يتركها وعاد يصرخ ويسألها.. كانت بلقيس تبكي وترتعش وهي تضمُّ يديها وركبتيها إلى وجهها. قالت والكلمات ترتعش من فمها وكانت تعلم أنه مهما ما قالت لن يزيده إلا سخطاً:

- والله العظيم إنني لم أقصد ذلك.. كنت أودّ أن أكون فتاةً لطيفةً في بلادٍ غريبة، كما أنه مجرد غريبٍ لا يستحقّ كلَّ هذا منك.

وكما كانت تتوقع، وكما كانت يائسة؛ لقد هاج غضب خالد:

- لا يستحقُّ ماذا؟ أتقصدين الغيرة؟! أنا أغارُ من هذا الصعلوك؟! ولمن؟ لزوجتي؟! هل تعتقدين أننا مجرد حبيبين على الهاتف يا بنت الكلب؟ وإذا كان غريباً؟ هل ستتحدثين مع أيِّ غريب؟!

قالها بصرخةٍ مدويةٍ ارتعدت لها فرائص بلقيس، نظرت له فرأت وجهَهُ مُحمَرَّاً، وعُيُونَه يتطاير الشرر منها، وصدرَهُ متّقداً بعروقِه المشتعلة.. لم تكن تعلم بلقيس أنّ ذلك هو ما كان يفكر فيه خالد، ولم تصدّق أن ذلك يحدث! لقد فهمت سبب غضبه في أولِ ليلةٍ لهم في صنعاء، ولم يكن الشبّاك إلا عذراً ليصفعها.. لم تشعر قطّ أنها وحيدة بقدر هذه اللحظة، كانت تتمنى لو تذهب لمنزل أهلها أو تتصل بأبيها، وهنا فكّرت لماذا لا تخبره أنها ستتصل بأبيها فربما يتراجع عمّا ينوي فعله.. وهكذا استجمعت ما تبقّى من صوتِها ولم يذهب مع بكائها وقالت له:

- أريد الاتصال بأبي.

جلس بجانبها في السرير وغطّى عينيه بيديه كعادة الحانقين؛ من يشعرون باليأس، وتمتم وكأنّه يكلّم الفراغ بينما كان يكلمها:

- تريدين محادثة والدك؟ أين هاتفك؟

أشارت بلقيس بإصبعها ناحية الأريكة، ذهب خالد بكلّ ثباتٍ وأخذ الهاتف وأدخله في جيبه وقال:

- أكثر ما يؤلمني أنّكِ لا تفهمين مشاعري ولا تهتمين بها.. أنتِ لا تفهمين شيئاً، لا تشعرين أنني رجلٌ وقلبي يشتعل؛ لهذا عليّ أن أضربك.

كان يقول ذلك بكلّ هدوء وكأنه يبلغها عن ذهابه للعمل، أخذ حزامه مرَّةً أخرى واتجه إليها.. كانت بلقيس في أشدِّ حالاتها رعباً، كانت ترتجف وكأنها زِلزال، لم تستطع الصراخ كما خططت قبلاً، ثمّ فقدت القدرة على النهوض وهي تتشنج على السرير، وعندما وصل إليها خالد استطاعت أن تقول:

- لا تضربني.

وبللت سروالها... انفجر خالد ضحكاً وهو يقول:

- أضعفكِ الله ومدّكِ بالخوف جراء أعمالك. هذا جزاؤك، جزاء من لا يحسن عملاً ولا يقدّر شريك حياته.

جذبها خالد من ياقتها، وكانت ما تزال تدرّ البول على سروالها وترتجف..

- يع! توقفي أيتها الحمقاء!

قالها خالد متأففاً، ثمّ أخذها إلى المطبخ وحكم عليها أن تنام في مرتبةٍ بين صفوفِ خزانة المطبخ محشورةً وكأنّها لقمة، حتى ملابسها المتسخة؛ لا تغيرها.. ثم قال وهي تستمع له وهي محشورةٌ في الظلمة من الداخل:

- سأقتلكِ لو خرجتِ.

لم يكن بحاجةٍ لقول ذلك؛ فبلقيس ما كانت لتخرج ولو انتهت هذه الأكوان.

****

مرّ عامان على بقاء بلقيس وخالد في صنعاء.. أصبحت بلقيس فتاةً أخرى، منقبةً تضع القفازات والجوارب، ترتدي الجلباب، لا تسمع الأغاني ولا تتحدث مع الغرباء إلا بالإشارة.. تتذكر عندما أمرها خالد أن تفعل ذلك مع الغرباء حتى مع صاحب الدكان، عندها صرخت:

- هل أنا بكماء؟!

أجابها وشبح ابتسامةٍ يلوي ثغره:

- وماذا إذاً؟! أحذّرك أن أعرف أن صوتك خرج لرَجُلٍ غيري.

طبعاً هي لم تكن تفعل ذلك إلا للضرورة، وإلا فالخروج من المنزل شيءٌ محرّم، وهي منذ عامٍ ونصفٍ لم تخرج أبداً.. هي لم يعد لديها هاتف، وأصبحت تتحدث مع والدتها مرةً في الأسبوع ولمدةٍ قصيرةٍ من هاتفِ زوجِها بعد أن أوضحت لوالدتها أن هذا قرارها لعدم امتلاكها هاتفاً وأن زوجها في العمل؛ لهذا لا تستطيع أن تحدثها إلا أوقات أجازته، طبعاً كلّ هذا كان تحت تهديدِ زوجها لها، أجابتها الأم في النهايةِ بكلِّ حسرةٍ تعتصرها:

- تغيرتِ يا بنتي.. صنعاء تفعل ذلك.

ومع مرور الوقت فقدت بلقيس بريقها وحيويتها، فقدت نظرتها المفعمة بالشغف، نشاطها المتزايد، وطاقة حبها الكبيرة، وأصبحت تشبه الأربعة الجدران والعمل الروتيني للمنزل.. ورغم أنها كانت تنفذ كل ما يطلبه منها

خالد، إلا أنه أصبح - ويا للعجب! - أكثر ضجراً منها وتأففاً، وأحياناً كثيرةً يضربها بدون سبب وكأنَّ السبب الوحيد هو أنه لم يفعل ذلك منذ مدة!

وكلما كان خالد يترك بلقيس ويهملها، كانت تعودُ إلى تلك الطفلة الصغيرة بداخلها، وتتذكر العجوز وحكاياته، صديقاتها وكلّ أحاديثهن ومرحهن، ووالديها، وأحياناً كانت تتذكر والدها يلعب معها الورق أو الشطرنج عندما كان يعلّمها أساسيات القِطَع فيه، ودائماً ما كان يضغط على أنفها ممازحاً لها مما يجعلها تغضب، كان دائماً يحثّها أن تكون فتاةَ أبيها الرائعة، وأن تفعل ما تراه صواباً، وكان دائماً يطرق على رأسها بإصبعه وهو يقول:

- هنا.. هنا تعرفين بالعقل.

ولكنها وبين كلِّ الذكريات التي كانت تستغرب كيف لعقلها أن يفرزها ويتذكرها لا تتذكر القصة الأبرز منهن؛ قصة حبها مع خالد! وكأنها تتمنى لو تحذف هذه الجزئية من حياتها وتنتهي نهاية النسيان..

انتهت بلقيس من تنظيف الغرفة بعد أن نظفت الصالة والمطبخ وذلك أيضاً بعد إعدادها للطعام.. شيءٌ ما جعل بلقيس تركز نحو خصائص النافذة المطلّة على الشارع لتجدها متربةً قليلاً، وبشكلٍ غريزيٍّ لبست خمارها ونقابها دون الجلباب؛ فقد كانت تخشى أن يظهر وجهها من النافذة، أصبحت ترتدي النقاب من الأعلى وسروالاً داخليّاً يرتفع عن ركبتيها بسبعِ بنانٍ مع قميصٍ داخليٍّ عاري الكتفين وردي اللون غطّى عليه النقاب الطويل.. لا تعلم بلقيس

هل هي فعلاً مقتنعة بكلِّ هذا الحصار الذي فرضه عليها خالد منذ أكثر من عامين، أم أن الخوف هو من يحركها! ها هي الآن ترتدي غطاء الشعر ونقاباً متيناً داخل غرفتها فقد يشاهدها أحدهم أو يظهر شعرها منه للخارج.. عندما فرض خالد الجلباب عليها قال لها:

- لا أريد أن تظهر شعرةٌ منكِ للغرباء بعد اليوم.

وفي يومٍ لاحق استلقت بلقيس جوار خالد في الفراش وأخذت تقبّل كتفه وصدره ثم سألته:

- لماذا كل هذا الغضب إذا أحد رآني؟ أنا لا أتعمد أن يراني أحد؛ لكن لماذا الجلباب والنقاب؟!

ثم أردفت أيضاً:

- عندما كنت فتاة؛ لم أفعل كل ذلك، ولم يجبرني أبي على ذلك بالرغم من أنه لا يفارق المسجد. هذا عندما كنت فتاةً بكر والعيون كلها عليَّ. والآن وأنا متزوجة، لماذا سينظرون إليّ؟!

رد خالد باقتضاب وهو يدير ظهره:

- لا يهمهم أن تكوني متزوجة أم لا، بل كونك متزوجة قد يكون أسهل بالنسبة لهم، وسيقولون إنك لن تجلبي لهم مشاكل الفتيات المراهقات من زواج وحب وتكاليف كثيرة.. هل فهمتِ؟! لا أودّ سماع هذا الأمر مرة أخرى.

لم تكن تعلم بلقيس إلى أي مدى ستقتنع بذلك الكلام، فهي لم تقتنع به بتاتاً، لكنها كانت تحاول أن تفهمه وتمرره داخل عقلها، تحاول أن تقنع نفسها بأن العلاج مُرّ، أن زوجها على حق، وأن تستمر هذه الحياة كيفما شاءت لها الأقدار أن تسير. وبينما كانت بلقيس تنظف النافذة المطلة للخارج، وفجأةً وكأنَّ شخصاً ما أخبرها أن تنظر للخارج بين شقوق النافذة، وإذ بها ترى عجوزاً يمرّ من النافذة، اتسعت عينا بلقيس وطرق قلبها بقوة والعجوز يمشي.. هذا العجوز هو جارها الذي كان يحكي لها القصص، القصص الجميلة التي لم تنقطع عنها أبداً، هو لم يتغير إلا قليلاً.. ظهره الأحدب، شاربه الأبيض، ذقنه الحليق بسكسوكةٍ بيضاء، عيونه الواسعة ورأسه الأصلع؛ كلّها لم تتغير إلّا قليلاً جداً. كان يرتدي بذلةً بنيّةً كعهده في الماضي، لكن يبدو أنه نحف أكثر من السابق.. أسرعت تركض إلى الباب لتلاقيه وقلبها ينتفض بقوة وقطرات الدمع بدأت تتجمع في مقلتيها، وقبل أن يبتعد صرخت وهي تفتح الباب:

- جدي!

التفت إليها العجوز بتعجب وارتباك، أمسك عوينات بصره ليرى جيداً وقرَّب رأسه وهو يقطب حاجبيه، استغربت بلقيس أنه لم يعرفها؛ أرادت أن تهجم عليه، لكنها تمالكت نفسها أمامه، خاصّةً عندما همّ بالابتعاد وكأنها مجنونة أو كأن الأمر لا يعنيه.. نشجت بلقيس:

- جدي؟ ألم تعرفني؟! أنا بلقيس.. بلقيس يا جدي.

نظر إليها مرةً أخرى باستغراب:

- هل تعنينني أنا؟!

ثم أردف وقد ظهر عليه التفكير والشرود للحظات:

- بلقيس من؟!

هنا انتبهت بلقيس للنقاب الذي كان يغطيها، لم تتمالك نفسها فرحةً إذ عرفت ما هو الشيء الذي جعله لا يعرفها بسرعة، نزعت حجابها مع النقاب بحركةٍ سريعةٍ؛ فهذا جدّها العجوز الذي ربّاها على حكاياته.. في الحقيقة هي لم تفكر بذلك في تلك اللحظة، إذ أنها كانت تودّ أيّ شيءٍ يذكّرها بالماضي، كانت تشعر بقلبها قد بلغ حلقها من شدة انفعالها.. وعندما رآها العجوز انتفض وجهه فرحةً وهو يصرخ:

- عزيزتي بلقيس!

احتضنها جيّداً حضناً يعادل سنين اشتياقهم لبعضهم، كانت بلقيس تسكب دمعها على كتفه وهي تصرخ:

- اشتقتك جداً جداً.

المسكينة بلقيس لم تدرك أنها ظلت نصف الوقت في الشارع ترتدي نقاباً من الأعلى وملابس داخلية من الأسفل، وعيون من في الشارع ترمقها؛ لكنهم لم يستطيعوا الاقتراب والعجوز معها.. ولم تدرك أنها الآن لا ترتدي شيئاً سوى الملابس الداخلية في الشارع وشعرها الطويل المنكوش أمام عيونِ البعض

المفتوحة لآخرها وحوقلة البعض، وآخرٌ يضرب كفّاً بكفّ.. ولم تدرك العزيزة بلقيس أن خالد كان قادماً من طرف الشارع وقد رآها هو وأصدقائه في العمل.

****

الفصل الخامس

تقول رغد:

- لقد تربيت وعشت وترعرعت في كنف أمي وحدها السيدة **كوثر** الحنونة صاحبة الوجه الطويل والشعر الأبيض الذي أصبح يميزها بل قد يراه البعض جميلاً، ولديها كتفان بعيدان عن بعضهما لقامتها المنتصبة دائماً. أما عن أبي؛ فقد أخبرتني أمي أنه مات منذ زمن طويلٍ في حربٍ من الحروب، لم تكن تتحدث عن أبي كثيراً حتى أنني لم أسمعها مرَّةً تقول عنه (شهيد)! وعندما كنت أسألها فيما إذا كان كذلك حقاً كانت تفتعل أيَّ شيءٍ آخر، أو تسألني سؤالاً مباغتاً لا شأن له بالأمر وكأنها لم تسمعني، أو تتمتم وهي تهز رأسها وتبتعد وكأنها تجيبني مستعجلة، حتى في الأوقات التي أحشرها فيها بالزاوية لتجيبني عن أبي ولا أدع لها مجالاً للفرار؛ كانت تنظر لي بحنوٍ وتسألني إن كنت بحاجةٍ لشيءٍ لم تستطع هي تقديمه، وكانت توسد شعري بيديها وأصابعها الطوال وتخبرني أنني في ربيعي وأن هناك الكثير من الفتيات توفّي والديهم أيضاً.. وكنت كأي طفلة في التاسعة من عمري أنسى سريعاً وأذهب مع أمي للمطبخ لإعداد الطعام أو إلى الدكان لأشتري لوالدتي أغراضها.

أكملت قائلة:

- يجب أن يتسنى لكما – يا سامر ويا توفيق – معرفة أنني كنت فتاةً مدللةً نسبياً وجميلةً وأعيش في عدن.. هذه الأحداث التي أرويها كانت في عدن وستمتد إلى عمرِ الثالثةِ والعشرين؛ اليوم الذي سافرت فيه، لكن هذا سأذكره لاحقاً..

في يومٍ حارٍّ من أيامِ صيف عدن المحرقة كنتُ عائدةً من المدرسة؛ كنتُ فتاةً تمتلك ضفيرتين ووجهاً مبتسماً مفعماً بالحيوية، وكانت لديَّ الكثير من الحكايات أحكيها لأمي عن يومي في كلّ يوم. وفي يومٍ ما، وعندما دخلت المنزل.. أووووه! ما زال ذلك اليوم عالقاً في ذهني حتى اللحظة، لا أعتقد أن أحداً – مهما كان صغيراً – سينسى تفاصيله أبداً.. كانت أمي تجلس على كرسيها بوجهٍ شاحبٍ وتهزّ قدميها بعصبيةٍ، تسند ذقنها على يدها منحنيةَ الظهر وتطقطق فمها بإصبعها السبابة وهي في طورٍ عميقٍ من التفكير حتى أن بعض ثواني مرّت ولم تكتشف أنني دخلت المنزل بالرغم من أن الباب كان مواراباً وهي بانتظاري.. وما إن رأتني حتى انطلقت مهرولةً نحوي تحضنني بكلّ قوة! كانت الساعة حوالي الثانية عشر ظهراً حين شعرتُ بوجهي يخترق صدر أمي، وشعري تصله قطرات ماءٍ كان من السهل معرفة مصدرها. أصابني خوفٌ شديدٌ حينها وأخذت أبكي معها مما جعلها تنفجر في البكاء وهي تمسح الدموع عني وتحاول

الابتسام.. وبعد نصفِ ساعةٍ من هذا المنظر والشهيق والزفير ارتحتُ أخيراً كما فعلت أمي، كانت تمشط شعري بأصابعها خلف أذني وتفرك وجنتيّ، ارتجفت شفتاها قليلاً وكأنها تودّ أن تخبرني بأمرٍ ما، ثم بدا وكأنها تراجعت.. ما زلت أتذكر تلك التفاصيل الرهيبة في ذلك اليوم.. ثم ابتسمت وهي تقول:

"هل أقدم لك الطعام؟!"

هززت ثوب أمي بيدي وكأنني أتوسل وأنا أقول:

"ماذا حدث أمي؟! لماذا بكيتِ؟"

عادت تكرر سؤالها لكن بوجهٍ جامدٍ هذه المرة؛ وجهٍ يفكّر في شيءٍ ما، ثم اتّجهت بضعَ خطواتٍ نحو المطبخ دون أن تنتظر إجابتي، ولم تلبث إلا أن عادت إليَّ بوجهٍ معكرٍ عبوسٍ قانطٍ خائف، حملتني إلى الكرسي وجلست بين أقدامي على ركبتيها تمسك بركبتي مرتجفةً وهي تقول:

"اسمعيني".. أتذكر أنها بلعت ريقها مرتين واحتشدت حبَّات عرقٍ تسيل من جبينها إلى وجنتيها بعد هذه الكلمة... وأكملت قائلة:

"حدث شيءٌ عجيب، شيءٌ مدّوي، شيءٌ كنت أسحب الأيام وأنسى كيف سأخبرك إياه.. أحببتكِ كثيراً يا رغد، أحببتكِ كعيني بل ككلتا عينيّ. لا أعرف أن كنتِ ستفهمين؛ لكن أنتِ ضوئي والنور الذي يبهج حياتي منذ عشرة أعوام.. أخبريني - يا رغد - هل هناك ما احتجتِ إليه

من قبل ولم ألبيهِ لك؟! هل كنتُ أمّاً قاسيةً عليكِ؟!" كنتُ أهزّ رأسي نافيةً بكلِّ صدقٍ وتوترٍ وقلق، هتفت تقول بعد أن وصلها جوابي:

"إذاً فلتعلمي أن ما سأقوله الآن لن يغير شيئاً يا حلوتي".

قبضت على كلتا يديّ بقوة، وأكملت قائلة:

"أنا لست أمكِ التي أنجبتك، أمّك في مكانٍ ما وسنذهب لزيارتها الآن بعد أن تتناولي طعامكِ يا روحي."

بقيت أمي صامتةً تنتظر ردة فعل الطفلةِ ذات العشرة أعوام، لا أتذكر جيداً كيف استقبلت الخبر ولا أعتقد أني فهمت ذلك جيداً، لذلك بقيتُ دون حراكٍ منتظرةً منها أن تتحدث أكثر. قالت وقد تجمعت قطرات الدمع ثانيةً ببابِ مقلتيها على عكسي أنا؛ إذ كنتُ جافَّةً من كلِّ شيء:

"أنا أمك، فأنا من ربتك وهيَ من عهدَكِ إليّ. أنا من تذكرينها وتحبينها، ومن سهرت طوال الأعوام والليالي بجانبكِ في الفراش، أنا مَن فؤادي ينفطرُ إذا وجدتكِ حزينةً وأصفع بيدي المتسبب في ذلك".

أخذت تمسح وجنتي مرةً أخرى بأصابعها الطويلة وتردد بصوتٍ مخنوق:

"هل فهمتِ؟ هل فهمتِ؟ أنا لم أسرقك، ستعرفين كلّ شيء.. فلتُلعن الفكرة التي طرأت برأسها.. أستغفر الله، ربِّ أغفر لي.. فليُلعن الشيطان الذي بداخلي.. والآن قومي لتتناولي طعامك.."

كانت ستنهض وكأنها لم تفعل شيئاً، لكنني أوقفتُها بإحكام قبضتي على يديها.. الآن وبعد أن كبرتُ استطعتُ أن أفهمها؛ كانت خائفةً من أيِّ كلمةٍ تبدر مني تسقطها أرضاً أو أيّ ردةِ فعلٍ تخشاها أو فكرةٍ لا تريدها أن تجتاحني.. ومع ذلك أوقفتُ أمّي وتمتمتُ لها بصوتٍ مرتجفٍ رعديد: "لماذا؟".

أغرقتني في حضنها وكأنّها تنهار أو تلقي بحملها، ثم نظرت إليّ وهي تقول:

"لا شيء سيتغير، سترينها اليوم فقط وستسيرُ حياتنا كما هي.. لا شيء سيتغير أبداً.."

كنتُ أقلب الطعام بملعقتي شاردة الذهن أفكر كيف سأقابل شخصاً لا أعرفه والمفترض أنها والدتي! أخذت ألوك بعض الفُتات في فمي وأنا أتساءل: "ما اسمها؟!" كنتُ أودّ أن أسأل أمي عن اسمها لكن فجأةً خطر ببالي جاري الذي اعتاد أن يقول:

"لا تسأل عن سوقٍ أنت واردٌ إليه".

كنت معجبةً بطريقته جداً عندما كان يشرح ذلك، وأتمنى من داخلي وأنا أستمع إليه أن تأتيني الفرصة كي لا أسأل عن أيِّ شيءٍ أنا ذاهبةٌ إليه، لذلك حبست أنفاسي وأيضاً لا يجب أن أخفي أنني خفتُ مِن نزوةِ بكاءٍ

أخرى تهدم المنزل وقلوب ساكنيه، لذلك بقيتُ صامتةً حتى خرجنا في ظهيرةٍ سيئةٍ كعادةِ أجواءِ مدينةِ عدن وضواحيها.

وجدتُني أعبر ممراتٍ ضيقةً وعسكر برُتَبٍ مختلفةٍ وإجراءاتٍ تفتيشية من مكانٍ لآخر، حتى وجدتُ أمي تخبرني أنّها ستنتظرني بينما أدخل غرفةً جانبيةً لمقابلةِ أمي التي أنجبتني، بدأتُ أجرّ الخطوة ببطءٍ إلى الداخل.. فتحتُ البابَ ببطءٍ وخوفٍ، بينما بقيت أمي في غرفةٍ أخرى تنتظرني، لم تفكُكْني إلا بعد جهدٍ جهيد وأعتقد أنها كانت في ذلك الوقت تجول الغرفةَ ذهاباً وإياباً بقلقٍ ووساوس تؤنِسها، لابد وأن الضابط فعل الكثير لكي يجعلها تهدأ.. وبينما أفتحُ الباب؛ سمعت صوتاً يقول مُخاطباً إياي:

"لديكما نصف ساعة."

فتحتُ البابَ لأجدَ أمامي امرأةً ظننتها ستكونُ في العقد الخامس أو نهاية العقد الرابعِ حينذاك، لكنني فُوجئت عندما وجدتُ أنها لا تزال في منتصف عمرِ الثلاثين، وبقدر ما كانت على بياضٍ ناصعٍ بقدر ما كانت على شحوبٍ يفجعُ القلب.. وما إن رأتني حتى فتحت فمها تكشف عن أسنانٍ صفراء وكأنها لا تصدق أنها أنا... قالت بصوتٍ خافتٍ يملؤه الشك:

"رغد؟ رغد؟!".

أومأتُ برأسي إيجاباً، وسرعان ما تحولت تقاطيع وجهها إلى فرحةٍ كبيرةٍ وانطلقت بأسنانها الصفراء وشحوبِها المهول ونحفها الذي جعلها تبدو وكأنها قصب سكر، انطلقت تحتضني غير آبهةٍ إلى كون تلك الطفلة ستتقبل ذلك أم لا.. قالت وهي في لهفة تقبيلي:

"سمعتُ أخبارك كثيراً، رأيت صورك مراراً؛ لكني لم أتوقعكِ هكذا.. لا أعلم ماذا دهاني! يا رب يا رب.. ألف نورٍ يا رب.. ألف حمد يا رب، ليس ألف بل ملايين، بل حتى ترضى وبعد الرضى وإذا رضيت.. أنا كالمجنونة؛ كيف حالكِ يا حبيبتي؟! أرجوكِ تحدثي! لا تتركيني هكذا.. هاتي يديكِ لأقبلهما.. لا تتركيني هكذا أبكي وأنا أتحدث، لا تخافي مني، لقد بتُّ الليلة كلّها محمومةً أهذي، أفكر كيف سأقابلك، وأفكر لماذا اتخذتُ هذه الخطوة، لكنني سعيدةٌ الآن بعد أن رأيتكِ ولست حزينة أبداً. أنتِ مني."

كانت السيدة - أو لنقل أمي - منفعلةً جداً وأجدها تضطرب أشدَّ الاضطراب وتهذي في الكلام حتى فكرتُ متى سأخرج من هنا، لكنها سرعان ما هدأت وتمسّكت بيدي وقادتني نحو الفراشِ لنجلس. كانت الغرفة التي نجلس فيها قديمةً خاليةً من كلِّ شيءٍ عدا فراشٍ في الزاوية نظيفٍ يبدو أنه أُعِدَّ لهذه الجلسة، ونافذةٍ صغيرةٍ في الأعلى.. كانت الجدران متآكلةً والغبار يملؤ الغرفة، كانت غرفة سجنٍ انفراديٍّ مهملة بكلِّ ما تعنيه الكلمة، كانت تسألني عن حالي وكيف هي أموري وكانت

تنتهي بكل سؤال باسمي.. مثلاً: "كيف حالك يا رغد؟ كيف تسير حياتك يا رغد؟ هل أنتِ سعيدة يا رغد؟" بالرغم من أنني الوحيدة هنا إذ لم يكن هناك داعٍ لذكر اسمي، لكن بدا لي الأمر وكأنها تعوّض سنين حرمانها من هذا الاسم فتفجره الآن.

اسمعوني الآن يا سامر ويا توفيق: أمي كانت قويةً جداً، تلك الأم التي أنجبتني.. أدركت ذلك لاحقاً عندما كبرت وبكيتُ جداً جداً، وازدادت حرقتي أكثر لأنني لم أعرفها كثيراً، لكم تمنيت أنني عشت معها ورافقتها.. حتى الآن؛ أتذكر ملامحها السعيدة وهي تتحدث معي وتوشك دموعي على الفرار مني.. حاولت أن أسألها أيَّ شيءٍ يدور في خلدكما، لكنها لم تجِب، أخذت تتناول الحديث بشكلٍ بعيدٍ وكأننا أمٌّ وفتاةٌ نعرف بعضنا فقط فرقتنا الطرق وجمعنا مطار سفرٍ لوقتٍ محدود.. كانت تُدعى **سهام**؛ أمي التي أنجبتني كان اسمها سهام، هذا الشيء الخاص الوحيد الذي أخبرتني عنه.. وعندما جاء الضابط ليأخذني بكت وأجهشت بالبكاء، شعرت بحب أمي سهام وهي تحتضنني وتحاول الاحتفاظ بي بين أحضانها قدر الإمكان.. جاءت أمي مِن خلف الضابط، توقعت أن الأمر سيحتدم لكنها راقبت المنظر حتى جذبني الضابط وأخذت تحتضن أمي الأخرى وكلتاهما تبكيان وكأنهما يتحدثان عن شيءٍ موجعٍ لا تريدان الإفصاح عنه..

انتهت تلك الليلة بالكثير من الصمت والسهد والكوابيس الليلية، أتذكر أن أمي ظلت بعد ذلك محمومةً لأيامٍ وأحيانا تنهض من فراشها لتقول كلماتٍ غيرَ مفهومة، أتذكر أنني كنتُ أرتجف طوال الليلِ لأيام.. ولم تمُر تلك المرحلة إلا بعد شدّةٍ وعناء.

شيئاً فشيئاً عادت المياه إلى مجاريها؛ تنسابُ مع الحياة، وعادت دموع أمي للجفاف.. أخرجتُ أولَ تنهيدةٍ لي صباحاً من القلبِ وكأنها بقايا غبارِ بيتٍ مهجورٍ تختفي للأبد. عدتُ للمدرسة وعادت لي ابتسامتي، وعادت أمي الحنونة لأعمال المنزل والطبخ والاهتمام بأموري، عادت لتمشط شعري كلّ صباح، وكنت دائماً ما أحب أن أجعله منساباً بينما كانت أمي تدعه ضفيرتين وتصرّ على ذلك وهي تبتسم غيرَ موبخة.. كانت أمي توبخني فقط عندما كنت أفعل الأشياء الخاطئة؛ لكن كان كلّ ذلك لمصلحتي، ففي ذلك العمر كنت لا أزال طفلة.. هب أنني فهمتُ كلَّ شيءٍ على نحوه الصحيح والمؤثر، ماذا كنت سأفعل؟! حتى أنني لم أسأل عن شيءٍ، لأن الحالة السلبية التي تلت الحادثة أفقدتنا معها كل سؤال، بدا وكأنني وأمي تحت اتفاقٍ مسبقٍ ألّا نتحدث عن شيء.. لا أنكر أنني كنت أفكر أحياناً عدما آوي إلى سريري، لكن مع حلول الصباح كانت كلّ الدهاليز التي في مخي تختفي وأركض للعب واللهو مع صديقاتي. وكما أخبرتني أمي وشدّدت عليّ؛ لم أخبر أحداً بهذا الأمر وظلّت هي أمي أمام

جميع الناس.. في تلك الآونة عشتُ فترةً طبيعيةً جداً مثل أيّ طفلة أو مراهقة، وبالمناسبة كنتُ أعرف حينها أختَ توفيق وتوفيق أيضاً، وللمصادفة التقينا الآن! أنا حقاً أجد نفسي الآن في مكاني وليس خارج هذه المدينة الصغيرة. لا أعلم ماذا سأقول! لا أعلم كيف سأستأنف الآن كل شيء! كيف سأتذكر كل الأحداث وأرويها؟! بعد حوالي عشرة أعوامٍ من لقاءي بأمي في السجن اتخذت قراري وهو معرفتي بكلّ شيء، فتلك الأيام كانت تؤرقني، وظللت أفكر كثيراً لوحدي، حتى أحياناً وعلى غير علمٍ مني كانت تخطر ببالي أن كلَّ ذلك مجرد حلمٍ مزعجٍ، وأنني لم ألتقِ بأمي في السجن رغم التفاصيل الرهيبة التي أتذكرها.. أردت معرفة كلِّ شيءٍ، وأين هي أمي الآن؟ ولماذا حدث كلّ ذلك؟! دخلتُ على أميّ غرفتها في الساعة الثامنةِ مساءً بعد أن أنهيتُ أعمال المنزل واغتسلت، كانت تقرأ القرآن كعادتها بعد أن تصلي العشاء، وما إن دخلتُ حتى نظرت لي وهي تقول:

"لقد خطرتِ ببالي الآن يا رغد."

أجبتها: "بماذا خطرتُ ببالك؟!"

"ماذا تودّين؟".

هكذا أجابت على تساؤلي وهي تغلق القرآن، تقبّله، وتضعه في مكانه المناسب. قلت دون مقدماتٍ وإن كنتُ أعتقد أن ملامح وجهي قدّمت

كلّ شيءٍ، وقد كانت نبضاتُ قلبي تُسمع للخارج، حاولتُ أن أبدو قويةً دون فائدة:

"ألم يحن الوقت لأعلم ماذا حدث للمرأة التي قابلتها في السجن؟!"

تعمدت ألّا أقول (أمي) حتى لا يحدث أيَّ أمرٍ غير متوقع، لكنها نظرت لي بجدية وقالت:

"خفق قلبي قبل أن تطرقي الباب، والآن عرفت السبب.. أولاً؛ لا بأس لو قلتِ (أمي) فأنتِ الآن تفهمين جيداً ولستِ طفلة. ثانياً؛ ما الذي خطر ببالك بهذا الشأن فجأة؟!"

توقعت أن أجدَ الكثير من ردةِ فعل أمي؛ ربما لأن ذكرى بكاءها في ذلك اليوم قبل عشر أعوام ظلّت عالقةً في ذهني، لكنها كانت تتصرف وكأننا على اتفاقٍ مبرمٍ أننا سنتحدث عن هذا الموضوع في المساء، أجبتُ:

"لا تعتقدي أن الأمر مفاجئ، لقد فكرت كثيراً وقررت ألّا أعلم شيئاً، لكن الأفكار أخذت تلتهمني والكوابيس تظهر لي كلّ يوم عن أمي في هيئةٍ مفزعة.. كنتُ طفلةً ونسيتُ كلّ شيءٍ، لكنه ظل عالقاً في فصٍّ ما مِن دماغي، وعندما بلغتُ هذا السنَّ وجدتُ أن من العار عليَّ ألّا أعرف شيئاً بسيطاً كهذا، كما أنني أتذكر أنكما لستما حانقتين مِن بعض، وكما أنك تعلمينَ أنني لن أحبَّ أحداً مثلكِ. وهكذا أردتُ إسكاتَ كلّ شيءٍ بداخلي – حتى الشعور بالخزي – وأرجو أن تخبريني ماذا حدث لأمي."

انتظرتني والدتي حتى أنهي شرحي أو تبريري وهي تنظر لي، هزت رأسها بانتظامٍ تامٍ وقالت بعد أن أنهت سماع الكلام الذي كنت قد أعددته من قبل: "لم.. لما..."

لم أعلم ماذا حدث فجأةً! أخذ وجهها يحمرّ ولسانها يثقل بشدةٍ، وسرعان ما بدأت تتهاوى على الأرض لولا أنني التحفتها بذراعي.. مرّ علينا يومٌ كئيبٌ آخر، أبلغني الطبيب أن الضغط ارتفع لأمي نتيجةَ موقفٍ صادمٍ ربما... وطلب أن ترتاح كثيراً. الآن أنا أفهم كيف بقيت تسمعني بهدوء، هكذا يحدث؛ أحياناً يبدو الشخص طبيعياً إلى أقصى حدود التحمل، وفجأةً ينهارُ تماماً كقصرٍ ذي حديقةٍ واسعةٍ امتلأ بأفرادٍ لا يطيقون بعضهم؛ يبدو رائعاً ورائق الحال من الخارج، بينما هو من الداخل يتآكل ويتهاوى..

تلك كانت المرة الثانية التي تُفتَحُ فيها هذه الصفحة، ومن جهتي أغلقت عليها نهائياً.. أما أمي؛ عندما استيقظت وجدتها تنظر لي نظرات الخائف، لكنّي قبّلتها على رأسها وأخذتُ أبتسم لها وحاولت أن أسترسل بالحديث بعيداً عن أيٍّ مواضيع تخصّ هذا الجانب من النقاش، وهكذا مرّ اليوم ومرت الليالي.. كنت أفكر كثيراً بهذا الشأن لكنّي لم أفكّر بفتحه مرةً أخرى برغم ازدياد الأسئلة في رأسي واحتشادها المُهلِك.

****

- مرّت مدّةٌ أعدّها حوالي ثلاثة أعوام، وفي اليوم الذي قررنا فيه السفر... كيف أتى ذلك؟! سأخبركم الآن ونحن نشرب الشاي.. من فضلكم هلّا طلبَ أحدكم بعضَ الشاي؟!

أسرعتُ وطلبتُ من النادلِ أن يحضرَ لنا بعضَ الشاي، وفي ذلك الوقتِ بدأَ الناسُ بالرحيلِ ولم يبقَ سوى عددٍ قليلٍ من الأشخاصِ حولَنا، كانت وجوهُنا واجمةً؛ لم أتعمد النظر إلى أحدٍ منهم، وكان قلبي لا يزال يحترق وأنا أجد رغد في أغلبِ كلامِها تنظر إلى سامر ثم تعيد النظر إليّ وكأنها تتذكرني.. بقينا صامتين لفترةٍ وجيزةٍ حتى أحضروا لنا الشاي بينما قام سامر بدفع الحساب بجوٍّ من التوتر، وطوال فترة الانتظار كانت رغد تشيح بنظرها عنّا وكأنّها تفكرُ بأمرٍ ما، أو ربما كانت تفكر بما ستقوله، وما إن ارتشفت أوّل رشفةٍ من كوبها حتى تحوّلت إلينا وابتسمت شبهَ ابتسامةٍ تنمّ عن بدءِ الحديث.. قالت:

- في خضمِّ هذا الموقفِ وإلى يوم سفري حدثت الكثير من الأمور التي أعدّها متنوعةً بين عاديةٍ وغير عاديةٍ، لكنها ليست في ازدواجيةِ حديثِنا ولا تتلامس مع قصتنا في شيء، لكن مثلاً وأنا أقول الآن بشكلٍ عابرٍ أنّ صديقة أمي رشحتني لابنها كزوجةٍ له وأنا وافقت.. لم أكن أعرفه؛ قابلته مرةً واحدة، كان شابّاً متوسط الطول هزيلاً قليلاً، يملك ابتسامةً ماكرةً وشعراً خشناً، دائماً ما يمشي فارداً ذراعيه وقد لاحظت ذلك وعرفت أنها صفة متلازمة فيه.. عندما وافقت؛ كنت آمل بتكوين أسرة رائعة وأن

أخرج من جو التوتر الداخلي الذي أعيش فيه، لا أعلم ما الذي فكرت فيه بهذا الصدد بالرغم من أنني لم أكن أعاني من والدتي شيئاً، كانت أمّاً حنونة جداً ورائعة، وافقت بالرغم من ذهولها وتوقعها أنني سأرفض ذلك، ربما أيضا تملكتني غريزة الأنثى بأن لا أفوّت قطار الزواج إذ ربما يكون هو القطار الوحيد المارّ من هذه المحطة.. لكن سرعان ما وجدت الاختلاف الكبير بيننا، فانتهى هذا الزواج انتهاءً بسيطاً وفاتراً يليقُ بما كان عليه.

ارتشفت رشفةً أخرى قبل أن تكمل قائلة:

- إذا عدنا إلى موضوع سفرنا؛ فإن ذلك حدث وأنا في الثانية والعشرين من العمرِ حسبما أتذكر، جاءت الرسالة إلى هاتف والدتي فاستغربت من أين جاءوا بالرقم، لكن هذه لم تكن معضلةً كبيرة. أمّا بخصوص الرسالة؛ فلقد اندهشت أشدّ الاندهاش منها وذلك عندما شرحت لي والدتي مفادها.. لقد وجدتها تناديني بينما كنت عائدةً للمنزل بعدما كنتُ أتبضعُ بعضَ المشتريات وهي في غرفتها. وعندما دخلت؛ وجدتها تجلس على كرسيها وكتاب القرآن بجانبها ووجهها ليس بخيرٍ بالمرّة مما يدل على أنها كانت تبكي، جعلني ذلك أنطلق نحوها، أمسكت يدي بكلتا يديها وأومأت لي بالجلوس على السرير أمامها، جلستُ متوجسةً أرتجف وقد استبدّ القلق بتفكيري كلّ الاستبداد.. قالت أمي: "وصلتني هذه الرسالة صباحاً".

وكانت تشير إلى هاتفها، ثمّ أكملت قائلة: "هل تعلمين من أرسلها؟"
نظرتُ لها مُنتظرةً جوابها، قالت: "جدك.. والد والدك.."
هنا خفق قلبي بشدّةٍ وكأنّه يودّ الخروج عن صدري والقفز عالياً والتجول لوحده وكأنّه سَئِمَ كونه داخل هذه الفتاة المهزوزة ذات الحياة المضطربة..
هنا رددتُ:
"جد.. جدي؟! هل لديّ جد؟!"
أجابت أمي بصوتٍ مرهق:
"أجل.. جدكِ؛ والد والدك.. قال إنه مريضٌ جداً وإنه يودّ مقابلتك."
هنا كررت سؤالي بصوتٍ مرتجفٍ خاوٍ:
"هل حقاً لدي جد؟!"
لم تجِب أمي هذه المرة، بل رسمت وجهاً حزيناً يكسو ملامحها، وأخذت تكور يديها عند صدرها كمن يتضرع وقد تأكدت لي الإجابة. لا أعلم كيف لم أفكر في ذلك، لكن خطر ببالي تساؤل؛ هل لأمي سهام أب على قيد الحياة أيضاً؟! وعندما سألت والدتي كوثر ذلك قالت بصوتٍ يشبه التنهيدة:
"لا.."
لكني لم أكن واثقةً من ذلك.. أجبتها:
"ما هي الخيارات؟"

قالت وهي تنظر للأسفل:

"لا أود أن أختار نيابةً عنكِ.. لا تفكري عنّي أي شيءٍ سيءٍ حيال إخفاءي لجدك لكني أقسم لكِ أنّي ظننته لن يسأل عنكِ مطلقاً.."

"لماذا لم يسأل عني إلى الآن؟! أشعر أنّ هناك صفحات كثيرة مخفية عنّي في الماضي، الأمر يتعلق بوالدتي سهام وسبب دخولها السجن، قلبي دائماً يخفق بألم.. يا لحسرتي! فقلبي لا يخطئ.. دائماً ما أشعر أن هناك سر.. هل فعلت شيئاً لا يغتفر لأتحمل ذنبه أنا؟!"

نهضت أمي من كرسيها تتهاوى إليّ حتى جلست بجانبي واحتضنتني بشدّة وهي تنتحب بصوتٍ مكتومٍ وقلبٍ مكلوم وكانت حالتي مثلها، ثم تحدثت وهي تبتعد عني قليلاً:

"اسمعيني يا عزيزتي؛ ربما لم أعلم كيف أصيغُ لكِ الأمر في البداية، لقد أخطأت في طريقة إخبارك مما أوصل بنا الحال إلى هذا المنحنى. ربما ما سأقوله الآن – بل مؤكد – سيزيد الطين بلّة.. اسمعي ما سأقوله لك وحاولي أن تفهميني، لم يكن الأمر مقتصراً بيني وبين جدّك حول هذه الرسالة فقط، إذ أنه لو كان أرسل هذه الرسالة فقط ما كنت لأخبرك بل لاعتبرتها وقاحةً كبيرةً منه وأغلقتُ هاتفي، لكننا تحدثنا أيضاً وسمعتُ صوته، هو مريضٌ جداً وصوته أصبح مبحوحاً بشدةٍ ولا يتحدث إلا إذا كحَّ مرةً أو مرتين. أخبرني أنه على فراشِ الموت، وأن جميع هواجس شبابه

تعود له الآن؛ يخاف أن يكون ظلمك.. لكن يا رغد، يا حلوتي، يا عزيزتي، اسمعيني جيداً؛ ربما هو ليس جدك، أجل ليس جدك، في الغالبِ لن يكون جدك، وحده الله يعلم ماذا سيفعل في لقاءك؛ هل ينوي تعويضكِ بناءً على لا شيء؟! لكنه استحلفني بالله وأخذ يسعل مرتين أن أسألكِ مقابلته واستحلفني بالله مرتين أيضاً أن أتضرع لذلك عندكِ إذا رفضتِ، لكنني رفضت وكنت أهمُّ بأن أغلق السماعة بوجهه لكنه سرعان ما قال: (حسناً..)، أخرجها منهكةً متعبةً ككلبٍ ضالّ يئِسَ من وجهته، أنا لا أخبرك ذلك لأجل أن تشفقي عليه، بل من الأفضل أن لا تذهبي.. لكني سألتكِ وسأجعلُ لكِ الاختيار لتبرأ ذمّتي."

انتهت أمي وأخذت تنظر لي (كما يقولون: من تحت لـ تحت) منتظرةً ردة فعلي.. وكأيّ ردةِ فعلٍ طبيعيةٍ نهضت إلى بين ركبتي أمي بكلّ تجهُّمٍ وأخذت أقرّب وجهي من وجه أمي وأقول:

"إلى متى تنوين إبقائي في حيرة؟! ما قصة جدي الحقيقي أو المزيف؟ هل نحن في فيلم؟ هل هذا جدي أم لا؟! إلى أين تودين الذهاب بي؟ جدي أم لا؟! ما هذه القصة؟ أنا لا أفهم شيء، اكشفي لي كل شيء؛ فأنا كبيرةٌ وأستطيع التحمل، ما الذي تخفينه عني؟! طفح كيلي حقاً! أعيش في دائرةٍ بل متاهةٍ تقتلني يا أمي.. اشعري بي!"

قبضت على يدي بيديها ورفعتهما إلى شفتيها وقبّلتهما بتوسل:

"أرجوكِ.. ما زلت أحمل أملاً أن ينتهي كلُّ هذا الوجع دونَ خسائِر، أرجوكِ لا تسألي أكثر.."

أصبح وجه أمي كالورقة المُبلّلةِ وكأنها كبرت عشرين عاماً فجأة! عرفت من وجهها في تلك اللحظة معنى الحزن المرتسم على الوجه، سحقها الحزن في لحظة، لقد أخافني وجهها وذلها الشديد لي.. انتهت تلك الليلة بشيئين أساسيين:

أولاً: موافقتي على السفر..

ثانياً: اتساع ثقب عقلي وقلبي أكثر دون جواب.

لم تسألني أمي عن سبب موافقتي للسفر؛ أعتقد أن أيّ شخصٍ مكاني كان سيفعل ذلك، فقد كنت أودّ معرفة كلِّ شيءٍ أو أيِّ شيءٍ وكان قلبي يحدثني أنَّ سفري هو نقطةٌ أساسيةٌ في سبيل معرفتي لمن أكون والحقيقة.. أمي كانت معي، وحتى لو رفضت ذلك ما كنت لأذهب بمفردي، كانت قد اشترطت عليه وجودها، ومن المفترض أن يكون جدي هو من أرسل لنا نقود السفر وأوكل أحدهم ليقوم بالمعاملةِ اللازمة، وفي ليلةٍ من ليالي الخميس قررنا السفر.

تكمل رغد:

- كلما أردت الإسراع بالحكاية لنعود باكراً إلى المنزل استرسلتُ أكثر بالحديث إذ أنني لا أريد تفويت أيّ نقطةٍ أو موقف، يكفي أن أخبركم أننا

لم نتحدث في أيِّ أمرٍ أنا وأمي من حين انتهائنا من هذا الموقف إلى حين نزولنا من الطيارة.

هنا تنحنح سامر قائلاً:

- وإلى أين كانت وجهتكم؟!
- يا لسهوي! ألم أخبركم؟! كنا ذاهبين إلى دولة **عُمان**.

استرسلت رغد حديثها قائلة:

- عندما نزلنا من الطائرة كان باستقبالنا شخصٌ طويلٌ نوعاً ما، أبيض البشرة، ذو شعرٍ يميل للاصفرار قليلاً، كان يرتدي ثوباً كعادةِ أهل تلك البلاد، كان استقباله لنا فاتراً وكان يبدو وكأنّه يكنّ لنا الحقد، حتى أنه لم يطمئن على راحتنا.. توجه لنا ليقول:

"كوثر؟". (عرفت فيما بعد أنه أحد الإخوة الذين سأتحدث عنهم لاحقاً) وعندما أومأت بـ "أجل"، سارَ كي نتبعه، قادنا إلى سيارةٍ وانطلقنا بعد أن أخذ أغراضنا القليلة. عندما دخلنا المنزل؛ كان الجميع صامتين يتأملوننا، رأيتُ أمي ترفع رأسها بخيلاء قليلاً وتسأل: "أين سنجلس؟" كان المنزل عبارةً عن فيلّا صغيرة مكونة من أربعِ غرفٍ يختلفُ حجمها من واحدةٍ لأخرى، منها للجلوس ومنها غرف خاصة بهم.. كانت الأسرة عبارة عن أخوين في الخمسينيات من العمر مع زوجاتهم وأطفالهم، اكتشفت لاحقاً أن الأطفال الأربعة لشخصٍ واحدٍ منهم، أما الآخر فلم يكن ينجب..

أتذكر الآن الذي لم ينجب كان يصكّ على أسنانه بقوة، وكان لديهم فناءٌ واسع جداً يستطيعون زراعة ما يشتهون فيه..

أجابت زوجة الأخ الذي لديه أطفال وقد بدا عليها التوتر مثلي من الأجواء المحيطة: "هنا.. في الغرفة المخصصة للضيوف، تعالوا معي."

قالت أمي وهي تنظر لزوجة الأخ الآخر: "كيف حال الحاج؟"

نظرت إلى زوجها بتوترٍ قبل أن تجيب: "بخير، الحمد لله بخير."

أضاف زوجها: "هو من استدعاكم يا كوثر."

فهمتُ من كلامه أننا غير مُرحَّبٍ بنا من قبلهم، وأنهم مرغمون على ضيافتنا.. استغربت قوله، واستغربت رد أمي المنطقي:

"يجدر بك أن تكون مدركاً لذلك" واستغربت أيضاً لمّا أصفرَّ الجوّ فجأةً وحاولت زوجة الأخ أن تذهب بنا إلى غرفتنا وكأنّها تدفعنا دفعاً.. بعد فترةٍ وجيزةٍ من جلوسنا قدموا لنا الطعام، كانت الساعة تشير للتاسعة مساءً، ثم أخبرونا أن الحاج نائمٌ وأنه لم يعلم بعد بوصولنا، وأننا سنلتقي به في الصباح.. شعرت أمي ببعض الراحة، إلا أن توترها زاد ليلاً، لكننا – رغم كلّ ذلك – استطعنا النوم ليلتها..

عندما استيقظتُ صباحاً كانت الساعة تشير للتاسعة، ولم تكن أمي جواري في الفراش، نهضتُ وارتديت حجابي ومضيتُ بتوجسٍ ناحيةَ الباب، وما إن فتحته حتى ظهر لي الأخ الذي لم ينجب.. (وأنا بصراحة إلى

ذلك الوقت لم أعرف أسمائهم)، كان وجههُ رائقاً لكنه عبس بشدةٍ عندما رآني، انتظرني حتى أبادر الحديث، سألته بصوتٍ يكادُ لا يخرج من حنجرتي: "أين أمي؟"

"في غرفة الحاج يا..."

وقبل أن يكمل؛ جاءت زوجته من الخلف وهي ترفع صوتها:

"سنحضر لكِ الفطور، وستلحقينهم."

بصق الرجلُ على الأرضِ بكلِّ وقاحةٍ وسار عنّا.. وبعد أن أنهيتُ فطوري الذي كان يبدو وكأنه فطورٌ يمنيٌّ مكوّنٌ من البيض والفاصوليا؛ أخذتني الفتاة الصغيرة إلى غرفة جدها، ومن فرط توتري كنت سأتعثر مرتين في الطريق، كنت أشعر بقلبي يدقّ بقوةٍ وكنتُ أحس النبضاتِ في وجهي مما جعلني أدرك أن وجهي احمرّ كثيراً، لكنني لم أكن أعلم ممَّ أنا متوترة! ولم أكن أعلم أن بعد هذا اللقاء ستتغير أشياء كثيرة في حياتي..

دخلت الغرفة لأجد أمي كوثر ورجل عجوز طاعنٌ في السن ينتظراني، أمي تجلس على كرسي بينما الرجل العجوز ممدد على السرير، وما إن رآني حتى بش وجهه:

"آه يا رغد! تعالي إليَّ لأقبّلك.. تعالي، تعالي، كم أنتِ كبيرة وجميلة!"

حاول النهوض عبثاً، لكني أسرعت ناحيته وقبّلت يده بينما كان يبارك على رأسي، كان عجوزاً أصلع الرأس متوسط الجسد لديه معدةٌ منفوخةٌ

قليلاً وذقنٌ أبيض طويل قد يصل إلى بداية صدره. كانت يداه وقدماه هزيلةٌ جداً مقارنةً بمعدته، لكن بشكلٍ ما كان يبدو بخيرٍ وليس كما يتوقع أيُّ شخصٍ أنّه على فراش الموت.. جلسنا قليلاً نتجاذب أطراف الحديث، وهو يسعل كثيراً كما قالت أمي، كان ينظر للأعلى بسبب وضعيته المستلقية على ظهره وبدا لي أن صبره بدأ بالنفاد بعد بضع دقائق من الحديث، شعرتُ أنه كان يجاملنا لا أكثر، لكنّه نظر لي وقال:

"أريد أن نكون لوحدنا؛ أنا وأنتِ فقط."

قالت أمي كوثر وقد اصفرَّ وجهها: "يفضّل أن أكون معكم."

حاول جدي أن يقنعها وهو يسعل.. كنتُ متوترةً ولا أعلم ماذا ينتظرني! مشت أمي كوثر للخارج بعدما أذعنت لكلام جدي وخجلت أن تقارعه أكثر وهو في هذه الحالة، وجاءت إليّ تقبلني بينما ضحكَ جدّي قائلاً:

"لا تودعيها، لا أستطيع رفع نفسي حتى أؤذيها هاهاها.."

عندما أصبحتُ وجدي بمفردنا، بدأ جدي يتنفس بشكلٍ رتيبٍ لفترةٍ وصدره يعلو ويهبط وكأنّه يفكر كيف سيبدأ أو كيف سيرمي العبء الذي يثقل كاهله قبل وفاته.. نظر لي بصعوبةٍ وهو يقول:

"هل تعرفين الحقيقة؟!" لن أذكر سعاله وإلا لقلت: "هل كح كح تعرفين الحق كح كح الحقيقة كح كح؟!".

أجبت:

"أنا اعرف أن هناك ما يخفونه عني لكني لا أعلم ما هو، وربما هو عن أمي.."

وسريعاً تداركت نفسي وأكملتُ قائلة: "بل أنا متأكدة أنهُ عن أمي."

قال لي حينها:

"نبيهة جداً.. وكما ترين حالتي، فلقد شارفتُ على الذهاب لخالقي، وأنتِ إلى الآن لا تعرفينني؛ أنا أُدعى إبراهيم، عمك إبراهيم أو جدك؛ لا فرق عندي حتى لو كنتُ صديقك.. لا أعلم كيف سأخبركِ لكني سأخبرك بكلِّ شيءٍ وأتوكل على الله، ثمَّ سأخبرك بسبب إخباري لك بكلِّ هذا.."

أردف العجوز بعد أن أنهى سعاله وعاد للنظر للأعلى:

"إلى الآن لا أعلم ماذا أقول.. هل تعلمين من تزوجت أمك؟ ولماذا هي في السجن؟ أنا متأكدٌ أنّكِ لا تعلمين، لذلك أنا من سأتحدث وأنتِ من سيصغي.. كانت أمك فليرحمها الله وليرحمنا بعدها (هنا قبض قلبي بشدةٍ لسماعي خبر وفاتها لكني كنت متوقعةً ذلك) متزوجةً ابني، ابني هو أخو هذين الاثنين في الخارج؛ **بهاء** الذي لديه الأطفال، و**نجيب** الذي لم يرزقه الله بهم.. كانا زوجين سعيدين، لكن لا أعلم ماذا حدث بينهما، ربما الفارق بين العائلات بالرغم من أننا لم نلحظ ذلك في البداية، أو ربما الشيطان باعد بينهما، أو ربما حسد الناس لكونهما زوجين رائعين جعل

حياتهم جحيماً. اعذريني يا طفلتي لكن اسمحي لي بالحديث، كان يخبرني ابني أن زوجته لم تعد تحترمه وأنها كانت تفعل أشياء مشينةً يخجل من البوح بها، أشياء ربما كانت عادية لكنها تشعل غيرة الرجل.. المهم؛ هل تنظرين إلى تلك الخزانة؟ افتحيها وأحضري الصحيفة من داخلها"

وأشار بيديه.. نهضت وكلي آذان صاغية نحوه وفتحت الخزانة، عدتُ إليه وبيدي الصحيفة.. قال:

"اقرئي أول خبر، ثم اذهبي للتفاصيل."

كان الخبر يقول بالعنوان العريض: (فتاةٌ تقتل زوجها بعد أن رآها عاريةً في الشارع).. أسرعتُ لأفتح الصفحات وأقلبها حتى آتي على تفاصيل الخبر، كان الخبر يتحدث عن امرأة..، يقول الكاتب أنها كانت تعيشُ حياةً بائسةً مع زوجها وقد كانوا كثيرو الشجار و... و... حتى وصل الأمر إلى أنه ذات يومٍ كان عائداً من العمل برفقةِ أصدقاءه؛ حين وجدها بملابسها الداخلية برفقةِ رجلٍ عجوزٍ مما أثار غضبه وقامت بطعنه على عنقه بأقربِ سكينٍ وجدته.. كان الخبر يتحدث عن امرأةٍ اسمها بلقيس، أفصحت لجدي وقلت:

"لكن هذا كان منذ أكثر من عشرين عاماً، وهذه اسمها بلقيس.. هل تقولُ إن أمي سهام قتلت أبي؟!"

في الحقيقة لم أكن أصدق ذلك، لم أكن أتوقع أن يكون الأمر بائساً إلى هذا الحد، فأمي – كما أتذكرها – كانت رائعةً وبشوشةً جداً، ظلّ عقلي يعمل حينها ليجد ما يريد أن يقوله لي جدي من هذا الخبر البعيد، ولم أصل لنتيجةٍ حتى قال وهو يتنهد كمن يتحدث مع نفسه:

"أنا آسف يا ابنتي **كوثر**.. (استدرك الأمر واستدار نحوي وأكمل) اسمعيني يا رغد؛ أمك هي بلقيس، وهي ذاتها التي كانت في السجن، فقط لم يخبروكِ بالاسم الحقيقي لها كي لا تأبهي مستقبلاً لو سمعتِ قصّة بلقيس مصادفة.. أنا آسفٌ لإخبارك بذلك.."

كانت أسناني تصطك بقوّةٍ ويداي تهتزان بعنف، أعتقد أن سبب هذه الحالة هو أن عقلي كان يعمل ليجد ثغرةً أخرى يترابط معها الحدث والمقالة في الصحيفة، كانت مفاجأته صدمةً أحرقت قلبي حرقاً وسقطت كنزلةِ مرضٍ على جسدي.. عدتُ لأقرأ الخبر المفجع مرتين، لقد كان يصفُ المرأة بأنها سيئة وخطيئة والرجل الذي لقي حتفه منها، لم أصدق أن تلك المرأة التي قابلتها وأنا طفلة تفعل ذلك! بدأت معدتي تؤلمني ورأسي يدور؛ لكنني صممت ألّا أفقد الوعي وأن أعرف كلَّ شيء، قلت وأنا أكاد أبكي بل صرخت بحدودِ الغرفة:

"كيف أصدق ذلك؟ كيف أصدقه؟!"

قال لي: "تمالكي نفسك يا رغد! الأمر لم ينتهِ هُنا، فالجزءُ الأصعبُ سيأتي الآن."

جمدت في مكاني وكنتُ أريد النهوض لأسمعه جيداً لكني لم أستطع بل تخلّيت عن الفكرة قبل أن أحاول النهوض.. أكمل قائلاً:

"عندما دخلت والدتك السجن - فليرحمها الله، وليرحمنا بعدها - لم تكن أنجبتك بعد، وفي الحقيقة قام ابني خالد الذي كان زوجها بفحصٍ مع والدتك وظهر أنهُ لا يستطيع الإنجاب، وبعد دخول أمك السجن بثمانية أشهر قامت بإنجابك، في ذلك الوقت قلنا أنكِ جئتِ من حرامٍ جرّاء سجن بلقيس.. سامحيني يا ابنتي.."

بعد أن قال هذا الكلام ظللت أبكي حوالي عشرين دقيقة وأنا أكتم فمي بيدي، لم أكن أودّ لصوتي أن يُسمعَ للخارج فتدخل أمي قبل أن ننهي حديثنا، وكان جدي يستمع لي ولا يبدي أيّ ردة فعلٍ حتى انتهيت.. قال: "من المفترض أن يكون البكاء راحةً للقلب، ويخفف عنك الألم الكثير، ولا يخفف عنكِ الحقيقة.. كم هم محظوظون الذين يبكون! هل تعلمين أنني لا أستطيع البكاء؟ أشعر بالحقد على من يبكون.. أنا من الأشخاص الذين يظلون يكتمون في أنفسهم ولا تسقط منهم دمعة واحدة، حتى عندما ماتت زوجتي؛ تمنيت - آه يا زوجتي - لكن لا تجعلينا ننجرف خارج حديثنا."

ثم صمت ليلتقط أنفاسه، وعندما بدأ في الحديث قال:
"أعود وأقول؛ أريد أن أخبرك أنه ربما تكون تلك الحقيقة زائفة، صحيحٌ أن ابني قام بفحص الإنجاب، لكن من يستطيع تغيير أمر الله لو أراد ذلك؟! ولو أراد الله أن ينجب ابني فتاةً مثلك؛ من سيستطيع منع ذلك؟ لكن بصراحةٍ أنتِ تشبهين أمّكِ كثيراً، وكم تمنيت أن تشبهي أباكِ لأتأكد.. لكن وأنا على فراش الموت قلت لنفسي: ماذا لو كانت ابنتنا فعلاً؟! ماذا أقول لله لو فاجئني بذلك؟! لذلك قررت أن أحضرك لتعيشي بيننا وأعوضكِ عن كلِّ شيءٍ عانيتِ منه. أما عن سبب إخباري لك بالحقيقة؛ فوالله أنه ليس لأجل أن أحرقك أو دون فائدة، لكن عندما وجدت أن أبنائي يكنّون لك كل الحقد والغلّ بقيتُ محتاراً؛ هل أحضرك وأعوضك - لكنك مهددة بأن تتحول حياتك إلى جحيم - أم أبقيك بعيدةً ولن أضمن أن يصلك شيءٌ ذو قيمة؛ فأنا بالكاد استطعت أن أتواصل مع ابنتي كوثر، ربما لا تعلمين ذلك؛ لكن كوثر هي ابنتي وهي عمتك لو افترضنا ذلك، والأهم من كلِّ ذلك أنني أردت رؤيتك. وفي النهاية قررت الآتي: أن أحضرك إلى هنا وأخبرك بكلّ الحقيقة وأعتمد على فطنتك وقوّتك كي لا تكون لكِ نقطة ضعفٍ لاحقاً إذاما صارحك بها أيّ شخص.. وهذه الورقة (مد يديه من تحت الغطاء يناولني إياها) هي تعويضي إليك؛ قمتُ بها بسرّيةٍ عن أهلِ المنزل وقمت بتوقيعها، كوثر فقط

من تعرف ذلك، هي حقٌّ لكِ وكأنّكِ ابنتي في كلِّ شيءٍ أملكه، احتفظي بها جيداً واستخدميها إذا خالفوا أوامري ولم يعطوك حقّك بعد أن تذهب الروح لبارئها.. كوثر تعرف كل ذلك."

"أمي كوثر؟"

"عمتك كوثر."

****

صمتت رغد وهي تنظر نحوي وسامر، وهذه المرة كانت تنظر لي أنا؛ كان هذا طبيعياً جداً فلقد كنتُ أنا من يعرفها، والآن أعتقد أنني لا أعرفها!

قد لا يمكن لشخصٍ أن يصفَ وجهه في لحظةٍ ما، لكني كنت مذهولاً حقاً وأنا أتلقى كل هذه الصدمات وكأن التي أمامي فتاة أخرى تماماً.. في البدايةِ توقعتُ أن يكونَ الأمرُ مشكلةً عائليةً فحسب، ولا أخفيكم أنني اعتقدت أنهم أرادوا قتلها فقط لأنها تحررت كثيراً، لكنَّ الفتاة التي أمامي تعترف الآن أنها ابنة حرام! لكن هناك لبسٌ وشكٌّ بالموضوع؛ فهي لم توضح الأمر بعد، إخوة خالد جازمون أنها ابنة زنا بينما جدها؟! قد يكون كذلك أيضاً؛ لكن الشعور بالذنب اشتدّ داخله.. لكن هل الحقيقة تكمن في كلِّ ذلك؟! وإن يكن؛ فما ذنبها هي؟! محالٌ أن أعاملَها أنا أيضاً بذنبٍ لم تقترفه أبداً.. كان سامر أول من فطن للأمر، قال (ولا أتذكر؛ هل هي ذكرت له الأمر أم أخذه منّي ولم تركز بمعلومته):

- ألم تقولي سابقاً أن أخوالكِ هم من يُلاحِقوكِ؟!

أجابت وهي تفكر:

- همم حقاً؟! يبدو أنني كنت مرتبكةً أم أنّ "الكاتب" اللعين تكاسل أن يعود للخلف ويعدّل الأمر أو يتأكد من ذلك.

كان الصمت مطبقاً عليها، نحنُ أيضاً؛ صمتنا بعض الوقت حتى بدأت أتساءل داخلي ما الذي سيحدث بعد ذلك؟!

عادت لتقول:

- أخذتُ الورقةَ وخرجتُ من الغرفة لا أتذكر هل ودّعت جدي أم لا، مشيت لا أشعر بنفسي أو بوجهي، فتحتُ الباب فرأيتُ أمّي كوثر بانتظاري، ومن نظرةِ وجهي ومن عبوري البارد جوارها فَهِمَت كلَّ شيء، كنتُ أتحرك وأسمع أنيناً خافتاً خلفي.. رأى الجميع تلك الورقة معي فقد كانت مهملةً بين أناملي، ويبدو أن الإخوةَ كانوا يتوقعون أن يحصل مثل ذلك.. وبعد يومين لم أجد الورقة، أخبرتني أمي كوثر أنها سلمتهم إياها، أخبرتني أن ذلك أفضل وأنها ستعوضني. صمتُّ عن ذلك، وأخبرتُ أمي أنني أريدُ العودةَ لموطني، كان الأمر صعباً فأمّي كانت تودّ الجلوس مع أبيها فقد رقَّ قلبها عليه بعد أن رأت حالته الصحية تتدهور يوماً بعد يومٍ.. حينها لم أفكّر أبداً بالعودة لوحدي، مضى شهران من استحقارهم لي ونظرتهم المشينة نحوي، ولم أسلم من سماعِ تمتماتٍ تصفني بـ(ابنة العاهرة) كلّما مروا من أمامي، وكانت الشتائم تبدو أوضحَ كلّما مرّت الأيام وكأنني اعتدت على ذلك، ولكن في الحقيقةِ لم أرد أن أزعج أمي، فكنت أكتم كل ذلك في داخلي، كنت أنام يومياً في فراشٍ لوحدي وأمي في فراشٍ آخر إلى جانبي، وذلك لأنني رجوتها كثيراً ألّا تتركني إذ كنتُ ألمحُ عزمها على المبيت مع جدي.. لم يعلم جدي أن الورقة ليست معي، ولم يجرؤ أحدٌ على إخباره.. مات الرجل العجوز في صبيحةِ

أحدِ الأيام والشمس مشرقة في فصل الشتاء وكأنها استيقظت لتودعه، امتلأ المنزل بالجيران والأقارب الساكنين هناك، وأقاموا جنازةً متواضعةً بما أنه لم يكن في موطنه. لم أجد دمعةً تنزف أبداً من أيّ أحدٍ من أبناءه، لكني رغماً عني بكيت وبكت أمي كثيراً وهي تحتضنني.. وفي ليلةٍ ما وبينما أنا نائمة وجدت أمي توقظني لتبلغني بالخبر، الخبر هو "أنني سأسافر".. كنتُ مرتعبة جداً، ولا أصدق أنني سأفعل ذلك وحدي! لكنها أخبرتني أنها رتّبت لكلّ ذلك، وأن الإخوةَ لا يضمرون خيراً بما أنَّ أبيهم قد توفي، لم يكن الأمر بهذه السهولة التي أحكيها لكم الآن؛ كانت الغرفة تدور حول رأسي وشعرت بأنفاسي تخنقني وبكيتُ كثيراً أرجو من أمّي ألّا تفعل ذلك، بقيتُ أتوسّل لها أن تأتي معي أو تدعني إلى جانبها مهما يكن الأمر؛ لكنها أخبرتني أنّها رتبت السفر لي وحدي لأنه من الصعب أن تغادر، كما أنها ستمنعهم من اللحاق بي. ثم في نهاية الأمر أخذتني أمي إلى حضنها وقالت:

"مازال هناك وقت.. مازال هناك ساعةٌ على الأقلّ، وسأخبرك بقصة صديقتي بلقيس؛ فأمك هي التي حكتها لي وأنا صدقتها لأنني كنت شاهدةً فيها"..

لقد حكت كلّ القصة التي رويتها لكم في البداية ولم تدخل نفسها، كانت تتحدث على لسان بلقيس أنه:

"عندما رآها بملابسها الداخلية في الشارع والجميع من حولها وأصدقائه لا يصدقون ذلك، قفز نحوها ليلكمها بكلِّ قوة وهو يشتمها ويطلّقها، حاول العجوز المسكين أن يثنيه عما يفعله لكنه تلقى ركلةً بالمعدة، تجمّع الناس لكن خالد كان قد أدخلها وأقفل الباب، وفي الداخل كانت بلقيس تصرخ وتصرخ والجميع يطرق الباب.. ووسط الهياج رأت سكيناً قابعاً أمامها فأخذته وغرسته في عنقه، وكلّ ما بعد ذلك كانت أموراً عادية، فقد استمرت المحاكم لعدة سنواتٍ حتى تمت إدانتها وعُوقِبَت بالموت شنقاً وذلك بعد اليومِ الذي التقيتِ فيه بها حينَ كنتِ طفلةً بيوم واحد؛ تمت العملية، وماتت بلقيس.."

أخبرتني أمي بكلّ ذلك أمام ذهولي وكأنّها المرة الأولى التي أعلم فيها أن أمي توفت.. كان الأمر صادماً لي، توقعت أنها ماتت لكن بعد ذلك بفترة، لم أتوقع أنها استقبلتني بتلك الإشراقة وهي على مشارفِ الموت في صبيحةِ اليوم الثاني! هل تتذكران عندما أخبرتكما أن أمي التي أنجبتني كانت قويةً جداً؟! لقد ذرفتُ دموعاً كثيرةً وأمي كوثر تخبرني بالقصة، لم أصدق أن تلك المرأة كانت مشرفةً على الموتِ وهي تحتضنني بكلِّ حبٍّ وتتحدث معي ودموع الشوق ترقرق في عينيها! لكم تمنيت أن أعيش معها، أن أعرفها.. أيّ قلب مسحوقٍ كانت تملك أمي؟! أيّ حزنٍ ذاك الذي يجعلها قويةً ولا تهتم بموتها؟! هل خالد من تسبب بكلّ ذلك؟ هل الحب يفعل

ذلك؟! أعتقد أن أمي لم تحكِ كلَّ شيءٍ دار لكوثر؛ بل أخفت آلاماً كثيرةً لنفسها حتى أن الآلام تشكلت على هيئةِ ابتسامةٍ في ملامحِ وجهها النقية.
أخبرتني أمي كوثر أنّ جدي والد بلقيس لم يتحمل ذلك، فقد ماتت جدتي أم بلقيس فور تلقّيها خبر الحادثة وليس الشنق مما جعل جدّي يعيش لوحده، فقد كانت بلقيس فتاته الوحيدة، لقد عاش في حزنٍ شديدٍ وكمدٍ عظيمٍ لفقدانه زوجته وابنته معاً حتى وافته المنية.. نظرت لي أمي كوثر وقالت:
"لن أخفي عنك شيئاً بعد الآن، يقالُ أنهُ جُنَّ في آخر أيامه، وصار يجول الشوارع هائماً ويقترب من أيِّ متسولةٍ ليعرض عليها الزواج (الله أعلم ماذا حدث لعقله!)، ظل الجميع يحوقل وكان يبتعد عنه كلّ من يراه، ذلك الرجل الذي كان العاقل الرشيد.. أخبرك بذلك كي لا تحزني مرةً أخرى في حياتك القادمة – يا ابنتي الحبيبة – لو تسنّت لكِ معرفة ذلك."
ولم تنسى أمي كوثر أن تخبرني أن فترة حملي كانت سرّية عن الجميع إلا عنها وعندما خلفتني والدتي عهدتني إلى كوثر صديقتها.. أخذتني أمي كوثر إلى أبيها (جدي) دون أن تخبر أمي بلقيس ظناً منها أنه سيأخذني ويرعاني كابنته، لكنه كان مجنوناً وطردها من المنزل وبالكاد استطاعت إخراجي كي لا يقتلني وأنا لا أزال مولودة رضيعة، وهنا ابتسمتُ وسط حرقةِ الدموعِ وقلتُ لها: "كنتِ ستدعينه يفعل ذلك." أخذت رأسي وقبلته

وقالت: "أنتِ ابنتي، ابنتي المحبوبة لقلبي والوحيدة".. طبعاً أمي كوثر لم تتزوج؛ بل كرست حياتها كلّها لي، وكان هذا سبباً كافياً - ولو كان الوحيد - لأسامحها على كلِّ شيء.. أكملت أمي كوثر قائلة:

"عندما تم تنفيذ الحكم سافر أبي وإخوتي إلى عُمان ليبدؤوا حياةً جديدةً، فهم أيضاً أرهقهم موتُ خالد، ولن أخفيكِ أبداً أنني أنا أيضاً بكيتُ كثيراً وخاصمتُ بلقيس طويلاً، لكنني اهتديت إليها أخيراً لأراها تنظر لي بعينٍ مبتسمة غير حقودةٍ رغم كل ما عانته من أخي.. وهنا أكون قد أخبرتك كلّ شيءٍ تقريباً."

قلتُ وأنا أنهض من مكاني:

"ابنة من أنا؟! هل أنا ابنة خالد أم السجن؟!"

كنتُ مستعدةً لأيِّ إجابةٍ فقد قررت أنه لابد لي أن أعلم، وكحياتي البائسة كانت الإجابة الأسوأ، قالت:

"كنتِ نتيجة اغتصابٍ متكررٍ في السجن، عندما أخبرتني أمك بذلك كانت كالورقةِ اليابسة؛ لم أملك إلا أن أحتضنها وأبكي.."

عرفت أنها ترجوني ألا أفعل شيئاً "أنا آسفة يا رغد؛ آسفة."، لكني حينها كنت أردد دونَ وعي:

"آسفةٌ يا بلقيس، أنا آسفة.."، وبقيتُ أرددها مراراً وأمي كوثر تحاول تهدئتي وكبحَ جماح يدي المتخبطة وخفضَ صوتي.. لقد أدركتُ حينها أيَّ

قسوةٍ عايشتها أمي بلقيس وما الذي قصم ظهرها حقاً، فلم تكفِ حياتها المأساوية؛ بل طاردها ذلك إلى السجن.. تخيّل معي أن تغتصبَ سجينةً قتلت زوجها، أيّ قلبٍ سيكون معك؟! أيّ قلبٍ رقيقٍ حزينٍ حاولتَ أن تقتل؟!

بعد ذلكَ حدث كلّ شيءٍ بسرعة؛ سيارة مسرعة، وثائق رسمية، ومطار، واستطعت صعود الطائرة بكلِّ أمانٍ عكس ما توقعت. لا داعي لأن أخبركم عن النوبات البكائية التي مررت بها أنا وأمي في السيارة والمطار، حتى أن أمي أمسكت يدي وأصرّت أن نعود وأقسمت أنها ستحميني، لكني وجدتُ أن من واجبي أن أستمر.. كنت أمشي نحو مصيرٍ مجهولٍ في بلادٍ مجهولةٍ بالنسبة لي، ولن يتسع الوقت لكي أتحدث إليكم عمّا جرى لي في الأردن؛ فذلك ليس في صياغة قصتي، فقط سأذكر أنني كنت قِطَّةً مرتجفةً في البداية ثم قررت أن أغير كلّ شيء، وأول شيءٍ غيرته هي هيئتي، كسبت بعض المالِ من عملٍ حصلت عليه وأنا أتسول؛ أجل تسولت هناك، شعرت بنفسي أرتجي العمل من مكانٍ لآخر كي لا أستهلك المبلغ الذي أعطته لي أمّي، حصلت على بعض المالِ واشتريتُ بعض الملابس التي تناسب تلك البيئة وخلعت الحجاب، وبعد أن فعلت كلّ ذلك لكي لا أعرفني؛ خرجتُ من المخبزِ الذي أعمل به، لكن سرعان ما عدتُ إليه.. بقيت هناك حتى أفلست واقتربت من الشحاذة، فقد

عشتُ في **الأردن** حوالي عشرة أعوام، أخذت لكنتهم وتطبّعت بطباعهم لدرجة أن من يراني يعتقد أني أردنية مثلهم.. وإذا اجتمعنا مرةً أخرى أو واتتني الفرصة سأحكي لكم قصتي في الأردن كروايةٍ جديدة.

صمتت رغد بعض الوقت وأكملت قائلة:

- عدتُ إلى **عدن** بعد عمرٍ طويل، وذلك عندما أرسلتُ لأمي وأخبرتها أنني أوشكت على الإفلاس، أخبرتني أنها لم تعد بحاجةٍ لمنزلها هناك وأنها تتمنى أن آخذه وأبيعه قبل أن تطاله أيدي إخوتها، وهو كتعويضٍ لي عن ورقةِ أبيها. بعد عشرةِ أعوام؛ أمي اعتادت الحياة في عُمان، وأنا أخذتُ التوكيل المُرسَل منها لي وبِعتُ المنزل، وأنا الآن أمامكم كما ترون.. لكنّ المشكلة الكبرى تكمن في أن الأخوين عرفا أنني أخذت منزل أمي واعتبروا أن ذلك دون حقّ.. ورغم كبرهما إلا أنهما ازدادا عتوّاً وغلظة، وهكذا بعض البشر؛ كلما كبروا زاد انجذابهم للعصبية وتشبثوا بالمزاج الفاسد الذي يركبهم.. هما الآن يهدداني بأنّهما سيجدانني ويقتلانني مهما كلف الأمر.. وأنا خائفة.

****

انتهت رغد من حكايتها الطويلة وقد أوشكت عقارب الساعة أن تصل للحادية عشر مساءً وقد كان المطعم يغلق أبوابه، بينما المدينة تنامُ في سكينتها المعتادة، عرفت حينها أننا بقينا أكثر من اللازم وأصبحنا معرضين للشبهة؛ لكن لحسن الحظ كان هناك بعض المارّة بالقربِ من **الكورنيش**، مما جعلني أنهض وأقول:

- حان وقت الذهاب..

وقف سامر موافقاً ثم تلته رغد تقول:

- ألن تقولا أيَّ شيء؟! وأنت يا سامر؟!

أجاب سامر:

- برأيي أن حكايتك مأساوية، لكن لتعلمي أنه ليس من السهل أن يأتي عجوزان من عمان ليقتلاك ويتركُا جميع مالهم هناك. هم لن يقاضوك ولن يقتربوا حتى، فذلك حق والدتكِ وقد هبته لك، ولا يستطيع أحدٌ أن يمنعها من ذلك.. أنتِ فقط خائفةٌ كثيراً وأنا لا ألومك على ذلك، لكنهم فقط مجرد عجوزين عاصيين لم يتوبا إلى رشدهم.

- كم أتمنى ذلك..

هكذا قالت رغد.. بينما أجبتُ وقد بدوت وكأنني غير موجود؛ كلون الهواء:

- أين سيارتكِ؟

- في آخر الشارع.. لقد كان الشارع مزدحماً، لذلك ركنتها هناك.

ثم أردفت وهي تقول لي:

- هل ستوصلني إلى فندقي؟!

شعرتُ بالمهانةِ تتفجر داخل قلبي.. نطقتُ بصعوبة:

- أجل..

كان من المنطقي أن آخذها أنا إلى الفندق، ومن السخافة أن تسأل هذا السؤال، بدا لي وكأنها تدعوني أن أرفض ليأخذها سامر الذي تعرفت إليه للتو.. رأيت سامر ينظر لي نظراتٍ فهمتُ مغزاها، قلتُ في نفسي وأنا أتحرك:

- لن أقف في طريقك يا سامر، إذا كانت لك فلن تتقاطع طرقنا.

ودّعنا سامر وأكدت رغد أنها تودّ مقابلته مجدداً، وأكد لها أنه متشوقٌ لسماعِ قصّتها في الأردن، ربما يلتقون غداً في نفس المكان، لذا اتفقنا أن نلتقي غداً في المكان ذاته..

مشيتُ أنا ورغد وتركنا سامر، مشيتُ معها حتى أوصلها إلى الفندق وأعود إلى منزلي.. مشيت إلى جوارها أجرّ الخطوةَ كاتِم النفس، مشمئز الحال، لا أعلم أين غادرت **رغد** التي تمشي إلى جواري؟! أين ذهبت روحها؟! ولكن سرعان ما ومض وجه سامر في ذهني فتذكرت كلَّ شيء، كنت في حالةٍ سيئةٍ جداً، أحاول أن لا أرسم أيّ ملامح في وجهي، تقمصت كما يطلق عليه الإنجليز (وجهَ البوكر) الذي يلبسه لاعب البوكر المحترف؛ فلا تعلم هل لديه أوراقٌ قويةٌ أو ضعيفة، لأن ذلك قد يقلب الموازين، أنا كذلك لم أحبب أن تشعر رغد

أنني حزين أو أكظم غيظي، سأبدو كالأبله الذي يبكي وسط الطريق على شيءٍ ليس له، أتذكر مرةً أنني رأيتُ أحد المجاذيبِ يبكي أمام جامعةٍ كبيرةٍ بحرقة، وعندما تجمع الناس حوله ليسألوه قال أن الدكتورة في الداخل كانت حبيبته وأنه عندما احترق منزله وتخلى عنه إخوانه وكلّ من يعرفهم وأصبح مشرداً تخلّت هي الأخرى عنه. كان يذكر لهم اسمها الكامل! ولأنه مجذوبٌ لم يهتم له أحد، ولم يكلف أحدهم نفسه أن يسأل عن هذا الاسم في الداخل.. ظلّ هذا المجذوب يبكي كثيراً حتى اعتاد الناس عليه، وفي مرّةٍ كانت هناك دكتورةٌ مرموقةٌ تمرّ من الشارع؛ إذ لم تأتِ بسيارتها بسبب أزمة البترول الدائرةِ حينذاك، حينها أخذ المجذوب يصرخ: "هذه هي حبيبتي.. هذه هي..." مراراً وتكراراً. لم يربط أحد بين اسم هذه الدكتورة المرموقة في الجامعة وبين الاسم الذي تفوه به المجذوب.. لكن عيون الدكتورة بدت حادَّةً بشكلٍ غير طبيعي، وشفتيها متشنجتان؛ فقد كان الناس يمسكون المجذوب بينما يحاول الوصول إليها ويصرخ أنها حبيبته المزعومة، ويبدو أن أقدام الدكتورة لم تسعفها للدخول إلى الحرم الجامعي فقد بقيت خلف الجموع تتصبب عرقاً دون أن تتفوه بأيّ كلمة، وبين مفاجأة الناس صرخ المجذوب صرخةً مروعةً أربكت الذين حوله، وركل وضرب بيديه بطريقةٍ عشوائيةٍ كلَّ من يعترض طريقة حتى وجد نفسه أمام الدكتورة! وفجأةً وخلال أجزاءٍ من الثانيةِ انقضَّ عليها بقوة وانقلبت هي تتدحرج على الأرض تحاول المقاومة وهي مستلقية على معدتها بينما هو يعتليها

كمجنونٍ ويقبّلها بكلِّ لهفةٍ ولعابه يسيل.. اجتمع الناسُ في محاولةِ أن يفكّوه منها، لكنه كان متشبثاً بها ومطوِّقاً إياها بيديه كالحزام، قاموا بركله وضربه مراراً حتى تصبب الجميع عرقاً واعتقدوا أنهم كسروا كلّ عظمةٍ لديه، لكنه لم يفتح يديه أبداً، وخارت قوى الدكتورة وأصبحت رويداً رويداً لا تقاوم، حينها جاء أحد العجزة من الخلف لا يعرف أحداً؛ يتأفف وهو يقول:

"غطّوهم بملاءة! استروهم؛ سينتهون ويذهبون". وبينما يشعر الجميعُ باليأس حيال الأمر انقضّت فرقة أخرى لم تشارك بالضرب فقاموا بضربه حتى خلّصوها.. ومنذ ذلك اليوم لم يرَ أحدٌ ذلك المجذوب الذي ربما تكون الدكتورة أدخلته أكبر سجن، والدكتورة أيضاً لم يرَها أحد بعد ذلك.

لماذا أتذكر الآن رواية ذلك المجذوب والدكتورة؟! يستحيلُ عليّ أن أصبح مثل ذلك المجذوب، يا لغباء ذلك المجذوب! لو ترك كلّ شيءٍ ليس له بحاله، لو أنّه تقبّل أنها ليست له، ولو تقبّل أنه مقزز لربما يصبح مثلي؛ ميت يسير على قدمين؛ ولا يؤذي أحداً..

وبينما أسير مع رغد نحو سيارتها، وفجأةً أمسكت يدي! تفاجأت بالأمر وانتابتني رجفةٌ سرت في سائر جسدي متخللةً عمودي الفقري.. لم أكن أعلم ماذا أفعل؛ فيدي ترتجف وأظنها تعرق، بقيت أنظر للأمام مثل عسكريٍّ في دورةٍ تدريبيةٍ أمام وجهاءه. ولشدّةِ ما كنت أرتجف حاولت أن أنسل بيدي قليلاً، أنا لا أقوم بأمورٍ لا أحبها، ربما أوافقُ إذا كنت بعيداً عن الفعلة، لكنني

لا أحب المشاركة فيها. إذا كانت تحب سامر فلا يمكنني أن أمانع أو أبدي أي وجهة نظر أو ردة فعل حيال ذلك، لكن أن يذهب سامر وتعود الأمور إلى مجاريها بيننا فهذا ما أرفضه بشدة.. بدت وكأنها شعرت بالحالة التي أنا فيها، قالت:

- هل هناك مشكلة يا عزيزي؟!

هنا انتبهتُ أنها عادت وقالت "يا عزيزي"، لم أعلم أنني سأعاني من هذا الشعور القاسي يوماً؛ أن تكون مجرد قطةٍ في بيت كريم، تداعبك ربة المنزل متى خرج زوجها للعمل.. قلت:

- لا.. لا شيء.

قالت:

- ما رأيك بسامر؟

قلتُ باقتضابٍ وبطريقة لا تدلّ على شيءٍ أكنه:

- جيد.. فتى جيد.. لا تنسي أنني أعرفه منذ زمن.

ضحكت وقالت:

- كنتُ أنتظر أن تسألني هذا السؤال، وبادرتك به على سبيل المزاح، لكنك أجبت بجدية!

معها حق، فطنتُ لذلك الشيء، أجبتها:

- طيب، ما رأيكِ أنتِ بسامر؟!

قالت مقتضبةً أيضاً:

- فتى جيد.

كنّا قد وصلنا إلى السيارةِ وبدأنا بالتحرك.. وما إن ركبنا السيارة حتى عاودت ومسكت يدي دون مبرر، شعرتُ وكأنّها تشعر بي وتودّ أن تواسيني فربما هي تشفق عليّ وقلبها مفطورٌ على المسكين الذي بجانبها، وربما هي أدركت أنها تجاهلتني كلياً أثناء الجلسة وضميرها الآن يؤنبها على ذلك فهي تمسك يدي وكأننا عروسان جدد، تسحب يدها فقط لتحرك شيئاً بالمقود ثم تعود وكأنها تلتقط شيئاً تملكه وتخشى أن يضيع. كنت متوتراً جداً وهائماً جداً، قلت في نفسي:

- هل قد أكونُ متوهماً اهتمامها بسامر؟! قد تكون اعتادت أن تتصرف مع الغرباء بهذه الطريقة ونحن فهمناها بشكلٍ خاطئ! هي الآن تلهب اللوعة داخل قلبي وتجعلني أنظر إلى وجهها الصافي المتورد المبتهج، تجعلني أعود إلى أحزاني، لكنها أيضاً تجعلني أعود إليها بسعادة غامرة..

هنا التفتت إلي وقالت:

- توفيق! ما الذي يشغل بالك؟ عيناك ليستا كالبارحة. هل أصبتك بالملل؟! لقد كنتَ تتأففُ منّي في النهاية.. أرجوك أخبرني ولا تخفِ عني أيّ شيءٍ، وأنا سأجيبك بما يحلو للصدق.

قلتُ وقد أستبدّ بي الارتباك وكسا وجهي الخجل:

- لا.. لا أبداً، من أنا كي أتفف منك؟! أنتِ فقط تتخيلين.

نظرت لي بعينين زجاجيتين؛ أو كما أحب أن أطلق عليهما عيني سمكة:

- أتقول من أنا؟! إذا لم تكن شيئاً - يا توفيق - فمن سيكون شيئاً لي بعد أن تخلى الجميع عني وبعد أن سمعتَ قصتي؟! سامر؟! سامر قد أعتبره مننا الآن لكن هل تقارنه بك؟ هل أنت مستعد لأن تجعلني أشكو لأحدٍ غيرك يا وغد؟!

لم أصدّق ما سمعته! قلت مرتبكاً:

- سامر أفضل منّي.

لم أكن أفهمُ ماذا كنت أعنيه تحديداً، لكنها هبت في وجهي مسرعة:

- ماذا تقول يا أحمق؟! هل لأنني تحدثت معه قليلاً سأعتبره أفضل منك؟! أنت أفضل منه كثيراً، ورائعٌ أكثر، والأول بالنسبة لي في كلّ شيء، لا تصدق أن سامر أفضل منك.. قال سامر أفضل قال.. لو عشت معه العمر كله فأنت الأفضل والأغلى يا عزيزي.

قلت وأنا أشاهد وجهها المنفعل تكسوه الحمرة الذي جعلته بجمالٍ لا يقاوم:

- اهدئي.. اهدئي.. هل حقاً تعنين ما تقولين؟! لا أقصد أنني.. (هنا بدأت أرتبك) لكن هل أنا أفضل حقا؟! ماذا عن سامر؟ لا أقصد الفضول؛ لكن من باب الفضول.. (ثم ضحكت خجلاً وتداركت نفسي) أعني من باب الثرثرة فقط.

قالت وهي تضغطُ أكثر على يدي:

- توفيق! افهمني؛ كلُّ شيءٍ مخوّلٌ لك بالنسبة لي، لا شيء عنّي يعد فضولاً منك.. لك أن تسألني ما تشاء، وأن تعرف ما تشاء، فأنت لي بعد الله يا عزيزي الغالي جداً..

"عزيزي الغالي جداً" التي قالتها شعرت بأنها خرجت كبيرةً كتنهيدةٍ كاملةٍ تعلن عن تفتُّحِ موسمِ ربيعٍ جديد، رأيتها تعضُّ شفتيها بعد ذلكَ وهي تنطقها كاملةً.. يا فاتنتي يا رغد!

أردفت تقول:

- بالنسبة لسامر؛ لا يمكنني أن أتحدث عنه بالسوء، لكنك أفضل منه، أنا أعرفك جيداً لكني لا أعرفه، وتكفيني أنت يا توفيق؛ هل تفهم؟! أين شردت؟

قلت دون مبالاة:

- في جمالك.. ولا تفهميني بشكلٍ خاطئ.

نظرت إلى الطريق بخجلٍ بعد أن كانت منفعلة جداً، بدا وكأنني صفعتها بقبلة، قالت:

- دائماً ما تقول "لا تفهميني بشكلٍ خاطئ".. عادتك.

حينها وصلنا إلى الفندق، نزلتُ لأودّعها وأعود إلى منزلي، لكنّها تشبثت بيدي بكلّ قوتها تدعوني للصعود والمبيت عندها، لكنني كنت عازماً على الذهاب،

كانت عيني ستبكي فرحةً ولأولٍ مرةٍ أحزاني تتبدد كغيومِ السماء بعد ليلةٍ ممطرة، لم أكن أريدها أن تشعر بذلك فأخبرتها أنني يجب أن أعود للمنزل، اتجهت هي إلى فندقها الصغير بعد أن أخبرتها أنني سأدعوها غداً مساءً في مقهى يُدعى "جارة القمر" بالقرب من "جولة بدر" (وتعمدت أن لا أتحدث عن سامر أو موعدنا في الحمراء)، ومن ثم اتجهتُ إلى المنزل حاملاً الكثير من الأفكار في جعبتي لتكون في عوني إلى يوم غد.

****

الخاتمة

ليلة للنسيان

استيقظتُ في الصباح مبكراً بالرغم من أنني نمتُ متأخراً، وليس كعادةِ من ينامون بعدَ تفكيرٍ مُرهِقٍ ويومٍ شاقّ؛ تجدهم ينامون كجثةٍ دون حِراك، لكني رجحتُ ذلك إلى إرهاقي الزائد الذي لم يكن نتيجة عملٍ وإنما نتيجة تفكيرٍ ومشاعر فائضةٍ نتيجة أحداث البارحة.. يمكنني أن أستعرض الآن المشهد في غرفتي بكلِّ بساطة، هي غرفةٌ مكونةٌ من سريرين؛ أحدهما كان يستخدمه أخي، ومرتبةٌ قديمةٌ تُستخدم غالباً لوضع الكتبِ وأيِّ أوراقٍ لا تجد لها مكاناً، وسجادةٌ للصلاة، بالإضافة إلى كومةِ ملابس في مكانٍ بعيدٍ عن مكانها داخل الخزانة.. على السرير أجلس بعينين حمراوين دون حراكٍ وكأن "الجاثوم" يكبس على أنفاسي، أحاول أن أستعرض كلّ ما حدث في لقاءي مع رغد صديقة أختي القديمة.. بالمناسبة؛ أختي تزوجت منذ زمن وسمعت أنها حاولت الوصول إلى رغد دون جدوى، فعندما رفضتني رغد أو بالأحرى رأتني غِرّاً واستخفّت بي وبمشاعري ومضت في طريقها؛ شعرتُ بحقدٍ طفوليٍّ كبير وخزيٍ ضخمٍ جداً، خشيت أن تكبر المسألة ويسمع أحدهم بذلك، خشيت أن يتم التعامل مع الأمر وكأنني طفل تجاوز حدوده، لذلك ومنذ ذلك اليوم كنت أبتعد عنها؛ بل كنت أهرب فراراً، لم أكن أتحمل أن تراني مرةً أخرى وتزيدني خجلاً وازدراءً لنفسي..

ولشدة ما تغيرت رغد لم أعرفها حين التقينا مؤخراً؛ إذ أنك لن تعرف فتاةً كانت ترتدي الأسود بالكامل وأصبحت لا تهتم بغطاء شعرها، فتاة لم تكن تلمس الغرباء وأصبحت فتاةً تأخذ بيديك بكلّ حنو وتعتذر إليك.. حتى عندما أخبرتني باسمها لم أخذ الأمر بعين الاعتبار في البداية بل كنت قد تولّهتُ بها مضطرباً أخشى أن أفقدها بأيّ أمرٍ خاطئٍ أقوم به. لكني وبينما كنا نتحدث سرعان ما قلت نفسي: هيه! أين رأيت هذا الوجه من قبل؟! ثم سرعان ما تذكرتُ كلّ شيء، وشعرت بسعادةٍ تغمر قلبي وتحاول الإفاضة كحالِ البحر، حينها نسيتُ ذلك الشعور المخجل، بل كنتُ قد نسيته منذ زمن، بالإضافة إلى عودة حبي القديم وإن كان مختلفاً قليلاً، لكنني فضّلت الصمت ولم أبُح مندفعاً عندما اكتشفتها، أعتقد أنني خشيت أن تؤول الأمور إلى منحنى سيء.. لكم ألاحظُ أنني بكل خطوةٍ كنت أخطوها مع رغد كنت خائفاً من فقدانها، كم هذا مخجلٌ من شخصٍ بالغٍ مثلي ألّا يتصرف على سجيته! لكني أشكر الله أنه لم يجعل رغد فتاةً جاحدةً تذهب إلى غيري، بل لقد أكدت لي مضيّها معي بكلّ حبٍّ وشغفٍ، وإنني لن أفرط بهذا الملاك أبداً.. حينها صمتُّ لكني لم أتحمل صمتي؛ إذ قلتُ لنفسي:

ربما نفترق قريباً ثم لا تكون لنا عودة، ربما إذا عرفتني سيكون الأمر أفضل وأستطيع أن أراها مرة أخرى.. ثم بقيت محتاراً بين الأمرين، وأخيراً قلتُ لنفسي: لماذا لا أحكي لها عنها؟! عن ذلك اليومِ، لأرى هل ستفهم أو تعرف

نفسها أم لا؟! وهكذا حكيتُ لها عن قصتي التي لم أذكر نهايتها لأن النهاية كانت معروفةً لكلينا.. تُرى هل عرفت في ذلك الوقت أنها المقصودة؟! لست متأكداً حقاً، لكنها أخبرتني أنها عرفتني وهذا كافٍ بالنسبةِ لي.

كانت رغد فتاةً جميلةً في سنواتِ صِباها، ثم تحولت إلى فاتنةٍ تدهش جميع من يتمعن فيها.. يمكنني القول إن جمالها جُنونٌ يمكن أن يذهب بعقلك، ثم لا تتوقع أن هذا الجمال يمكنه أن يهتم بك أو أن يلتفت إليك حتى! بالنسبة إليّ كشخصٍ كان يعيشُ حياةً بائسةً جداً ومنغلقةً على نفسها ويحدث معه هذا الحدث؛ فمن المستحيل أن تعود حياته إلى طبيعتها بعد ذلك – أقصد إذا ذهبت – وهذا ما حدث لاحقاً أو كما كنتُ أعتقد عندما تعرفت بسامر.

عندما أخبرتني رغد أن هناك من يلاحقها وهم أعمامها، كانت ترتجف كحالِ ورقةٍ توشك على السقوط في فصلِ الخريف، وكنتُ مرتبكاً ككرسيٍّ هزازٍ يجلس عليه شخصٌ سمين، فاستشرت – وليتني لم أفعل – سامر لنسمع حكايتها سويّاً، إذ أن من عادتي أن أكون مرتبكاً جداً وكنت أخشى أن تنتهي حكايتها ولم أقدّم لها أيّ صنيع، لذلك طرأ برأسي سامر؛ الرجل الذي أثق به والواثق من نفسه حتى أقنعته بالحضور. كانت ليلةً مشؤومةً، أو بدايتها كانت مشؤومةً ومُرهِقةً لقلبي، ثم بدا وكأنّ فصل الربيع أتى وسط الجليد، لكن لنتحدث عن المشؤوم أولاً فأنا إلى الآن لم أستيقظ من فراشي ولا أنوي التحرك إلا لموعدنا في المقهى مساءً.. منذُ الوهلةِ الأولى رأيتُها منجذبةً أشدّ الانجذاب

إلى سامر، تتابع كلماته باهتمام، تسرح وتمرح مع ما يقول إما بتمتمةٍ أو بطرح الملاحظات التي يعدلها سامر، ثم تعود لانجذابها حتى أنها أخرجت خِصلةً من شعرها وأخذت تطويها وهو يتحدث – والله وحده يعلم ماذا يعني ذلك، وأنا لا أريد التفكير كثيراً في الأمر – لكني رجحتها كحركةٍ عفويةٍ منها، وفي الحقيقة إذا أردنا أن نتحدث بتعقّل فهي لا تدل على شيءٍ واضح، ولو افترضنا أنها تحبه؛ فهل ستفتن أنثى إلى هذا الحد والرجل أمامها يتحدث؟! لكن الذي سحق قلبي هو سؤالها فجأةً في خضم الحديث:

- هل تحب؟!

أنا أتذكر كلّ شيء، وأتذكر ما أخبرني سامر عن كونها تحبه، وأنا للأسف سمحت لذلك أن يعشش في دماغي.. لكن لنأتي الآن ونقارن؛ ماذا قال لها عن الفتاة التي يريدها وعن ماذا فعلت؟! لقد أوضح لها كونه رجل شرقي، لكن ما إن تحركت رغد من عنده حتى كانت تجذبني لأصعد معها لأنام. رغد حقاً مختلفة وليست مهتمةً به، لكني أرجح أن هذه طريقتها في الأدب؛ الاهتمام الزائد بمحدثها. وأنا الآن وبعد أن عدت إلى رشدي أجد أن رغد فتاة متحررة أو أصبحت متحررة، لا يهم... المهم أنها الآن متحررة، وسامر كان يتحدث بكل عنف عن الممثلين والمغنيين، هي كانت تشاركه كنوعٍ من الأدب والتعارف إذ أن فتاةً مثلها لا يمكنها أن تقبل رأياً كهذا أو حتى رأيه عن الفتاة

التي يودّ اختيارها، لذا ابتكرت رغد الأسئلة الشخصية لتثنيه عن هذا الحديث الذي أظنه أصبح يخدش أذنيها.

عندما نتوتر نصبح مجانين، تظلم الأنوار في عقولنا، لا تأخذ أي فكرة سبيلها إلينا، ونلوم ضعفنا وقلة حيلتنا، لكن ما أن نعود إلى رشدنا أو يضربنا أحدهم على رأسنا بلسانه حتى ننتبه إلى كم كنا أغبياء وكم كنا محتدمين مع أنفسنا دون داعٍ لذلك.. حينها نقول: فقط لو كنا طبيعيين أو حتى سعداء والأمور ستجري إلى ما هي الآن عليه.. كم نحن مغفلون!

لكم أضحكني موقف رغد معي حينما غمرتني بحبها وعطفها بعد ذهابنا من عند سامر وكأنه لم يخبرها أنه يكره هذه الأمور، وكأنها تقول لنفسها: "لا أحد سيتحكم بي.. أنا لست من هذا النوع يا عزيزي توفيق".

أتذكر الآن قصة رغد؛ لكم فاجأتني رغد هذه! رغد التي طالما كنت أعتقد أني أعرف محيطها بالكامل بل وأحببتها وعقدت التقدم بالزواج منها، تكون هي حدث هذه القصة العجيبة؟! مسكينةٌ رغد، عزيزتي رغد، المحطمة رغد، فلقد عانت النكبات تلو الأخرى.. يمكنني الشعور بألمها جيّداً؛ تخيل أن تكتشف أن المرأة التي ربتك ليست والدتك؟! كم هو مؤسفٌ وحزينٌ ذلك! ثم هي لم تتحدث عن شعورها تجاه خالد وكأنها لا تودّ أن تفتح هذه الصفحة أبداً.. انتقلت لتعيش في دولةٍ أخرى لمدةِ عشرة أعوام ولم تتحدث عن ذلك إلا اليسير بالرغم من أن ذلك كان له الأثر الأكبر على شكلها وطبيعتها. أنا متأكد أن

هناك قصص مثيرة حدثت لها هناك جعلتها تتغير؛ لكني لا أتمنى أن تكون مؤلمة.. أتذكر وجه رغد الآن وهي تحكي لنا عن والدتها؛ كم كانت ترتجف وشفتيها ترتعشان! كان صمتنا أنا وسامر يدوّي فوق كلّ شيء، لكن لا أحد منا أرادها أن تصمت وكأننا كنّا نشجعها: "هيا استمري دون بكاء، اعبري هذه اللحظة، أنتِ قوية.." فقدت رغد وصيّة جدّها وهذا كان أمراً متوقع الحدوث بعد أن اكتشف الجميع ذلك، لكن لماذا لم تحافظ كوثر على تلك الوصية؟! لقد فكرتُ بالأمر وفسّرتُ ذلك على نحوٍ ما.. ربما أنّ كوثر كانت تعلم أنها ليست حفيدته ولا يمكنه أن يعتبرها من أبناءه، وربما يستطيعُ أبناؤه إثبات الأمر، لذلك أعادت لهم تلك الورقة، إذاً فذهاب رغد إلى منزل جدها كان هباءً.. رغد الآن خائفة من شيءٍ غير واقعيٍّ ولن يحدث؛ فالعجوزان لن يطارداها، لقد حان الوقت لتستقر رغد وتبتسم.. يجب عليَّ الذهاب إلى المقهى مساءً وأُطَمئِنُها بشأنِ ذلك.

****

يقع المقهى في **خور مكسر** عند **جولة بدر** بجانب معسكرٍ في وسط المدينة؛ مما يعني أن الحياةَ لا تتوقف بمجردِ عيشنا جوار معسكر، حتى أن هناك مقهى راقٍ آخر تم افتتاحه مؤخراً هناك..

اتفقنا على اللقاء في الساعةِ السابعة مساءً ووصلتُ بعد أن صلّيتُ المغرب في الساعةِ السادسةِ والنصف، طلبتُ قهوةً وطفقتُ أنتظرها في مكاني، أشربُ قهوتي على مهل.. إلى هذه اللحظةِ لم أتصل بسامر ولم أخبره أن موعدنا أو لقاءنا في الحمراء لن يحدث اليوم وربما نجعله في يوم آخر، كان من المفترض أن نلتقي في الساعة الثامنة أي بعد ساعةٍ من لقائي برغد، قررتُ ألّا أتصرف من تلقاء نفسي، ثم أنني حين اتفقتُ مع رغد على هذا التوقيت وجدتُ أنها لم تتحدث عن سامر وكأنها نسيت أمره، لذلك فكّرت أنه بما أننا سنلتقي قبل ساعةٍ فسنفكر بماذا نخبره ونتحجج له أننا لن نأتي إلى الحمراء. كنتُ أودّ سماع اقتراحاتها، فرغد هي الوحيدة التي جعلتني أثق بعالم النساء وأتحدث على سجيتي، وكنتُ قبل أن ألتقيها أضعُ ألف حساب لكلِّ كلمةٍ تقال لي من قبل الفتيات، بل كنتُ أضعُ حساباً للنظرات حتى، وكنتُ أشعر بالاشمئزاز من نفسي إذا لاحظت أن دعابتي لفتاةٍ ما جعلتها نافرةً مني، لكن رغد لم تمنحني هذا الشعور؛ بل كانت هي من تحثني على ترك الاعتذارات وأن أتحدث بما يحلو لي، هي من قالت لي بأفعالها أنني شابٌّ لطيفٌ أستحق أن ترأف بي الجميلات وأنها لن تتخلى عني.. ذهلتُ عندما قالت لي: "من الذي سيهتم بأمري؟! سامر؟! ها؟ سامر؟!". هذه الجملة قد لا يقولها أفضل الأصدقاءِ من نفس الجنس لبعضهم البعض، وقد لا تجدها من جنسين مختلفين يعشقون بعضهم البعض، دائماً الحب يولج نوعاً من الكبرياء والألم في وقتٍ ما ولو كان طفيفاً لا

يشعر به الطرف الآخر.. رغد الرقيقة، رغد الحسناء، رغد الفاتنة، لقد تجاوزت كل ذلك معي بحبّها لي، سكبت حزنها داخلي وأزهرتني، بكت بل أمطرت لتغسل البركان الذي يشتعل داخل جوفي.. صورة رغد لا تفارق مخيلتي؛ يا لعذوبة هذه الصورة! هذه الملامح وهذا الجسد الممشوق؛ ما أحلاها من فتاةٍ رغد العزيزة!

هكذا ظللتُ أمرّر الوقت وأفكر في رغد حتى رأيتُ باب المقهى يُفتح ورغد تدخل مهرولةً، وما حدث بعد ذلك لن أنساه طوال عمري.. رأيتها تهرع نحو النادل الواقف أمام الطاولة تطلب اثنين "ميلك شيك" ثم أتت نحوي على استعجال، وعندما وصلت قالت:

- أنا آسفةٌ يا توفيق سامحني، سامر في الخارج.

قلت مذهولاً:

- سامر في الخارج؟! ماذا يفعل؟

قالت:

- لقد مرّ مبكّراً ليصطحبني معه.. أنا آسفة، آسفة جداً يا عزيزي، ظننتُ أنّ بإمكاننا الجلوس ساعةً دون أن يعلم ثم أتجه إليه، لكني فوجئتُ عند نزولي من الفندقِ إذ رأيته ينتظرني في الأسفل! أخبرني أنه لم يستطع انتظار وقتنا. أووووه! نسيت أن أخبرك؛ هل أهذي أمامك أنا الآن؟! سأسرع بإخبارك قبل أن يجهز العصير، البارحة أخذت رقم هاتفه عندما قمتَ

أنت، لقد جذبني هذا الشخص سامر، لكنك وكما أخبرتك أنك أفضل منه، ثم ظللت طوال الليل أفكر وأفكر ماذا سأفعل حتى عزمت أمري واتصلت به، ويا لفرحتي! لقد أجابني بكلِّ راحةٍ وكأننا نتحدث منذ زمن. لقد تحدثنا ساعتين، ثم في النهاية أخبرته أننا سنكون وحدنا في الحمراء لأنني تذكرت موعدنا هنا، طبعاً لم أخبره بذلك فلا أريد أن أغامر ويغضب مني.. طبعاً ليس وكأنني لا أريدك، ولكن ادعُ لي – يا عزيزي توفيق – أن يحبّني سامر وأن يتقبل هذه الفتاة.. كنت أريد أن نجلس لوحدنا لأفهم شعوره تجاهي جيداً.. ثمّ كما أخبرتك؛ عندما كنتُ خارجةً إليك وجدته في الأسفلِ يتأهب للصعود إليّ، تحججتُ له أنني كنت مرهقةً فقط وأودّ أن أمشي قليلاً، ولم أجد عذراً كي لا أذهب معه.. لكن أخبرني يا توفيق؛ ما رأيك بحضوره المبكر؟ أليس مذهلاً؟! هل تعتقد أنه يحبني؟

ودون أن تستمع لجوابي أردفت:

- العصير جاهز.

اتجهت إلى هناك لتأخذه، وتوقفت عندي لتقول قبل أن تهرع نحو الباب مغادرة:

- سامحني؛ لكني أعتقد أن منزلك قريبٌ من هنا وسوف تعود بسهولة، ولا تنسى ألّا تخبر سامر أنني لقيتك هنا، لقد تحججتُ له أنني أودّ "ميلك

شيك" فحسب، وأصررتُ على النزولِ لوحدي إذ أنه ربما يغضب وهذا قد يحطمني يا صديقي العزيز.. ثم أنني سأخبره أنك صديقٌ عاديٌّ بالنسبة لي، لا تقلق؛ لن أتخلى عنك بسهولةٍ وسأدخلك بيننا.. إلى اللقاء.

بعدها بثواني خرجتُ من المقهى ورأيتُ سيارة سامر تنطلق وهما على متنها، شعرتُ بعيني تنزف دون أن أعلم لماذا! تملّكني شعورٌ بالعته والصدمة، لقد أسميت حكايتي "في ثلاث ليالٍ" لأنني لم أكن أود أن أجنح لهذا اليوم؛ الرابع، المنكود بين ذاكرة الثلاث ليال. راقبتُ السيارة تنطلق نحو البعيدِ بجسدي المرتجف وقد بدت السماء حزينةً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، بينما الهدوء سدَّ أذني كغطاءٍ عازلٍ للصوت، ولا أعلم.. تالله لا أعلم.. بقيتُ فقط أراقبهم حتى غابوا؛ لا أعلم إلى أين...

تمت

رواية

في ثلاث ليال

اللون الأسود يجعلها مبهرة؛ فالأسود سيد الألوان، لكنها في ذلك الوقت كانت سيدته، ولكن أكثر ما أربكني هو شعرها المنسدل الطويل الفاحم إلى آخر ظهرها؛ لقد نزعت حجابها! هي غريبة عن وطنا بعض الشيء، وكذلك غير محجبة، ولم تخف مني! هي مذهلة!

محمد أحمد (شوقي)